قاضي الموتى

ترجمات

دارك

جوزيف شيريدان

ترجمة: بسمة الخولي

t.me/twinkling4

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَاد، الإلكترونية.©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب

جوزيف شيريدان

قاضي الموتى

رواية

دارك للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة©

إلى السيد المحترم، ويديه المخضبتين بالدم

الفصل الأول

منذ ثلاثين عامًا مضت، رأيت الرجل الغريب للمرة الأخيرة.

لم يكن أحد أولئك الرجال الذين يعلقون في الذاكرة، عرفته لأنني كنت أدفع له إيجارًا ربع سنوي عن أحد الممتلكات التي حصلت عليها في إنجلترا. ولولا لقاؤنا المتكرر لما كنت ميزته عن أي رجل آخر في الشارع؛ كان هزيلًا، جافًّا، بائسًا، ومتشحًا بالسواد.

لم يكن كثير الكلام، ليس في تلك المرة فقط بل دائمًا وعلى مدار كل تلك السنوات التي قابلته فيها. اعتاد الإتيان إلى باب بيتي للحصول على الإيجار، نتبادل كلمات قليلة ثم يذهب ولا أراه إلا في موعد التحصيل التالي. لطالما أثار فضولي — ذلك الرجل — لأنه بدا لي كالأشباح في مشيته ومظهره. شحوبه وقلة كلامه وقلة المعلومات التي كانت لديَّ عنه رسمت داخل عقلي صورة لرجل ميت. بلا عائلة ولا صديق. شخص ميت لا يظهر إلا في أوقات تحصيل الدين ثم يعود إلى عالمه الآخر الذي لا أعلم عنه شيئًا.

جاء الرجل وذهب دون أن يخلف في ذاكرتي أي انطباع عدا الفضول، وبالطبع كنت أنساه ما إن يخرج من الباب. لكن في تلك المرة، المرة الأخيرة، كان مختلفًا.

لم يكن الرجل الغريب المتشح بالسواد متزنًا، بدا — رغم أن هذا ما ظننته ممكنًا — أكثر رعبًا وأكثر شحوبًا، جاءني قبل موعد نقد ماله بأسبوع كامل، أخبرني بصوت غريب بارد أنه اتصل بي مرتين قبلها ليعلمني أنه في حاجة إلى

استلام المال قبل الموعد. وهو ما لم يحدث قبلًا أبدًا.

دعوته للدخول فقبل ببساطة غريبة، انهار على أحد الكراسي مخرجًا منديلًا ليمسح حبات العرق التي تراكمت على جبهته. رفض شرب الشاي لكنه اعتذر مرارًا. وحين سألته عن السبب أخبرني مترددًا أن عليه دفع إيجار النزل الذي يقيم فيه مبكرًا لأنه سيرحل عنه للأبد.

في تلك الأوقات كان تغيير مكان الإقامة فعلًا غريبًا. الحياة في إنجلترا لم تكن سهلة أو رخيصة، ولم يكن سهلًا إيجاد مكان ثابت للاستقرار، لذا كلما وجد أحدهم مكانًا مناسبًا لم يكن ليتركه بسهولة، لم يكن الانتقال واردًا كثيرًا في تلك الأيام. لذا سألت عن السبب الذي دفعه لاختيار الرحيل، هل لديه مشكلة ما؟ هل بوسعي المساعدة؟

توقعت الكثير من الإجابات، لكن ما قاله لم يكن ضمنها.

- لم أعد راغبًا في البقاء مع الموتى.

توقفت عن الكلام فورًا واكتفيت بالتحديق في وجهه في حين حاول هو تحاشي نظرتي، اعتدل في الجلوس وبدا راغبًا في الرحيل لدقائق، ثم أغمض عينيه وجلس باستقامة، التقط أنفاسه وقال:

- أعتذر إن كنت أثرت قلقك، لكن ما رأيته البارحة كان فوق قدرتي على الاحتمال.

سألت عن التفاصيل فقال:

- سأبدو لك مجنونًا.

- لا..

قلتها بثقة ثم طلبت من جديد:

- أخبرني، علِّي أستطيع مساعدتك.

تنهد الرجل وحرك رأسه:

- لا أظن يا سيدي، ولا أظن أنني راغب في الحصول على المساعدة. سأترك المكان على أي حال.

صمت للحظة ثم قال:

- لكن، في حال فكرتَ في الانتقال إلى مكان جديد يومًا ما، عليَّ تحذيرك من ذلك المكان، البيت القديم في ويستمانستر.

***

كان المنزل القديم واقعًا في أحد الشوارع المظلمة في ويستمانستر، أحد تلك المباني السوداء ذات النوافذ المؤطرة الضخمة والواجهات المكسوة بالخشب المشغول. فسيح، عامر بالأثاث، لكنه شبه مظلم دائمًا، وبارد.. البرد كان شيئًا أساسيًّا هناك.

على واجهة المبنى الأمامية أُلصق إعلان عن أن المبنى متاح للبيع أو التأجير، لكن لا أحد بدا وكأنه يهتم. أو لأكن أكثر دقة، لا أحد بقي مستعدًّا لامتلاك مثل ذلك المكان. لذا ظل المبنى خاويًا إلا من بعض مستأجرين قلائل لبعض الغرف فيه، في حين ظل الجزء الأكبر من المبنى فارغًا ومغلقًا لا أحد يعرف ما يدور خلف أبوابه أو عبر نوافذه المغطاة بالسخام وخيوط العنكبوت.

كانت سيدة طويلة، غريبة، ضخمة، ترتدي الحرير الأسود بصورة دائمة، صاحبة عينين واسعتين متعصبتين

دائمًا، تبدوان وكأنهما تراقبانك باستمرار حتى لو احتميت منها خلف باب حجرتك، هي المسؤولة عن المبنى. مع خادمة واحدة تعيسة تهتم بكل شؤون المبنى وحدها. حين انتقل الرجل للإقامة في المبنى بعد أن اختاره بسبب رخص سعر الإيجار، أخبرته السيدة أن البقاء هنا له قاعدتان أساسيتان: لا حفلات أو إدارة أعمال لا شرعية، ولا حديث عن أسرار النُزل للغرباء.

بالطبع كان بوسع الرجل استيعاب الشرط الأول، لأن كثيرًا من العائلات المحافظة في لندن كانت تضع ذات الشرط إن سعوا لإيجار أحد ممتلكاتهم للغرباء، ولأن الحفلات كانت شيئًا شائعًا في ذلك الجزء من بريطانيا، كان عليهم وضع الشرط كجزء أساسي من عقد الإيجار. لكن ما لم يفهمه هو الشرط الثاني، ظل ذلك الشرط عسيرًا على التفسير.

لم يكن هناك سواه في المبنى كله في ذلك الوقت، بعد رحيل المستأجرين. لذا لم يكن هناك تفسير منطقي لـ"أسرار النزل" إلا إذا كانت تعني أسرار الأخشاب والحجارة، ربما. لكنه على أي حال وافق على الشرطين وانتقل إلى هناك سعيدًا. كان قد استأجر غرفتين كبيرتين نوعًا. غرفة معيشة قرمزية اللون، فسيحة ذات أثاث بني قديم. وغرفة نوم ملحقة بها، مع مكتب وخزانة ضخمة حيث كان بإمكانه تخزين كتبه وأوراقه وأي ممتلكات أخرى قيمة.

تلك الخزانة، كانت سبب هروبه من المبنى الأسود، بلا

عودة.

***

لعامين كاملين ونصف بقي الرجل في النزل الغريب، لم تقابله مشاكل هناك ولم يقابل أي زوار أو نزلاء آخرين. ظل المكان فارغًا إلا منه، والسيدة الغريبة، والخادمة التعيسة. حتى هاتان كانتا تغادران في الليل ولا تعودان إلا في صباح اليوم التالي. كان يكره الوحدة لكنه لم يشتكِ، اكتفى بتكديس أشغاله وعمله كله في أيام متتالية ولأوقات طويلة حتى ينام فور عودته، كانت تلك الخطة، وتلقائيًّا بمرور الوقت تحولت إلى فعل اعتيادي وروتين يومي للعامين ونصف.

لكن مع مغيب شمس ذلك اليوم، وللمرة الأولى وجد عينيه تحدقان بواجهة المبنى. بالشارع الصغير مر الجميع ورؤوسهم مدلاة، أعينهم شبه مغمضة، لا أحد يتحدث مع جاره ولا عربة تقف منتظرة، كان الكل يمر من هنا دون أن يرفع أحدهم عينه لينظر إلى البيت الذي بدا وكأنه انبثق من الأرض، أسود كالقطران، سامق نحو السماء الشاحبة المخضبة بالحمرة. تلك كانت المرة الأولى التي يرفع بها عينيه لينظر إلى البيت الذي أوشك على احتضانه لعامين، وتلك كانت المرة الأولى التي يلاحظ فيها أن النوافذ المرتفعة على الواجهة بطرف المبنى، كانت مضاءة من الداخل. ذلك الجزء من المبنى كان مغلقًا دائمًا على حد علمه، لم يكن ليتذكر تلك المعلومة لولا أن غرفته تقع بالدور ذاته، في مقابل تلك الغرفة ذات النافذة المضاءة

تمامًا.

هل حل بالمكان نزيل جديد؟، سيكون هذا من حسن حظه. على الأقل سيحصل على جار أخيرًا. لم يرتب في الأمر حتى حين لاحظ ظلًّا ما يتحرك في الداخل، لم ير هيئة صاحب الظل من مكانه بالأسفل لكن الحركة أكدت له أن نزيلًا جديدًا قد صار جارًا له بالدور ذاته وبالغرفة المقابلة لغرفته.

لم ير صاحبة النزل حين دخل، ولم يستطع العثور على الخادمة أيضًا. لذا صعد إلى الغرفة مباشرة وقد قرر العروج على صاحب الغرفة الجديدة كي يلقي التحية. بدأ في ترتيب ما يرغب بقوله في عقله، لكنه ما إن وصل إلى وجهته حتى وقف بمكانه، وقد فرت الكلمات من عقله.

خلفه كان الممر الذي يفضي إلى باب غرفته، مع 4 غرف بين غرفته وبين السلم. أمامه كانت أربع غرف أخرى على الجانب الأيسر وغرفة وحيدة في الواجهة، تمامًا كالجهة المقابلة. لاحظ من قبل أن المصابيح في تلك الجهة مقفلة، وورق الحائط متآكل. بالطبع فعل وسأل المضيفة فأخبرته أن تلك الجهة من المبنى تحتاج إلى الصيانة، وأن الأرض بها متهالكة وغير صالحة للاستخدام لذا يبقونها مغلقة حتى تتحسن الأحوال.

لأن الممر كان مظلمًا دومًا لم يلاحظ من قبل أن أبواب الغرف لم تكن مغلقة بإحكام فقط، بل كانت مثبتة في أماكنها بألواح خشبية متقاطعة. كلها عدا ذلك الباب في نهاية الممر، في مواجهته مباشرة. كان الباب الوحيد الذي

حل محله جدار كامل داخل الإطار الخشبي من الحجارة. لم يره من قبل، لم يلاحظه أبدًا لأن المصابيح في تلك الجهة لا تضاء أبدًا.

لكن الآن، وعلى ضوء مصباح وحيد تمت إضاءته في هذا الجانب، رأى المشهد. وعادت إلى ذاكرته حقيقة أن الغرفة مضاءة، وأنه رأى أحدهم يتحرك فيها. فجأة شعر بقلبه ينقبض، تلوت أحشاؤه فتراجع، خطوتين في البداية ثم ركض إلى حجرته الخاصة وأغلق الباب بإحكام.

لا، لم يطلب الخادمة أو يسأل صاحبة البيت. لسبب ما شعر بأن كلتيهما ستنفيان ما رآه. ما الذي أعطاه ذلك الشعور؟ لم يكن يعرف، لكنه الآن كان واثقًا أن ما رآه لم يكن نزيلًا، وأنه إن رغب في أن يُترك وشأنه عليه أن ينسى الأمر تمامًا ويمارس حياته وكأن شيئًا لم يحدث.

لكنه للأسف لم يُترك وشأنه.

***

في تلك الليلة وبينما هو على حافة النوم، شعر بفراشه يهتز. لم ينتبه في البداية لكن صوت باب الغرفة أجبره على الانتباه، ببطء ثم في خلال ثوانٍ أصبح بكامل وعيه.

أمامه على ضوء المصباح الصغير الزيتي الوحيد بالغرفة كان باب الخزانة قرب باب الغرفة المفضي إلى حجرة المعيشة يتحرك بهدوء، ببطء لكن بوضوح. اعتدل في الفراش وفتح فمه لكنه عجز عن إخراج أي صوت حين رأى اليد العظمية تمتد من الداخل إلى الخارج، مستندة إلى باب الخزانة. قبل أن يظهر الجسد الكامل لرجل.

أمامه وقف الرجل الشديد الطول، يرتدي لباسًا كهنوتيًّا أسود من رأسه إلى أخمص قدميه، كان شديد النحافة بملامح صارمة، أصابع يديه متآكلة حتى العظام، لكن عينيه في محجريهما، غاضبتين حتى أوشك على رؤية الشرر يتطاير منهما. تحرك الرجل مبتعدًا عن الخزانة، متبوعًا بجسد آخر، انزلق كذلك من الداخل، كان رجلًا أكبر سنًّا، في السبعين على أقل تقدير. ولم يرتدِ هذا الأخير لباسًا كهنوتيًّا بل قميصًا أبيض ذا أكمام منفوشة، ثياب قديمة تعود إلى قرون مضت. كان أكثر بدانة لكنه صارم كذلك، أقصر قامة، بلا فك سفلي وبمحجرين فارغين.

لم يبدُ عليهما الانتباه إلى أن صاحب الغرفة فيها ولا لاحظا وجود جسد على الفراش. تمتم الحي صلاة سريعة لكن الأموات ظلوا هناك، تحركا تباعًا جوار فراشه، إلى الجدار، ثم ومن رأس الفراش إلى آخره. رغب في الصراخ، في الركض، لكن جسده بدا مشلولًا له، فرقد هناك فاقدًا الإرادة، مراقبًا بعين متسعة وقد انتصبت كافة شعيرات جسده.

لم ينزلق الطيفان على الخشب بل مشيا الواحد تلو الآخر وكأنهما حيَّان، أسفل منهما اهتزت الأرض ومعها اهتز الفراش. لكن أيًّا منهما لم يلتفت. ثم توقفا، مباشرة أمام الفراش ليعتلي الرجل ذو القميص كرسيًّا غير مرئي حيث وقف ثابتًا لنحو دقيقة. ثم قفز فجأة، متدليًا من مشنقة ظهرت كما ظهر كليهما من الهواء.

في تلك اللحظة صرخ الرجل، صرخ وقفز من فراشه

وتعثر لينكفئ على وجهه، لكنه قام وركض مغادرًا الحجرة، والبيت بالكامل في لباس نومه.

***

أخبرني الرجل بألم أنه عاد في نهار اليوم التالي — اليوم — باكرًا مع الخادمة، لم يطلب منها تفسيرًا لكنه وقف خارج الغرفة في حين قامت هي بجمع حاجياته. التقط ما تمكَّن من التقاطه من ثياب وبدل لباس النوم الذي بات به على رصيف الشارع المقابل للبيت. جمع حاجياته وغادر فورًا. أخبر السيدة صاحبة النزل بمكانه الجديد وأخبرها أنه سيمر عليها لينقدها ما تبقى لها من مال، وهذا ما دفعه للحضور لديَّ، لطلب ماله كي يتمكن من سداد مستحقات البيت.

حاولت دفعه ليتكلم أكثر، لكنه رفض تمامًا. سألته إن كان بإمكاني اصطحابه إلى البيت ومقابلة صاحبته، ربما أصل إلى حل يساعده للبقاء في مكانه، لكنه أخبرني أنه لن يضع قدمًا واحدة لا داخل الحجرة ولا داخل البيت من جديد طالما بقي حيًّا. عرفت حينها أن ما حدث كان أكثر مما أخبرني به وأنه احتفظ بتفاصيل أكثر لنفسه، لكنني لم ألح. نقدته ماله وتركته يذهب.

في ذات النهار بعد مغادرة الرجل تذكرت حادثًا مشابهًا لذلك الحادث الذي رواه لي، واحدًا من تلك الحوادث التي تمر بالمرء فيظنها فردية، ثم ينتبه، بعد مرورها بسنوات، أن الكون لا يصنع شيئًا فرادى، وأن الصدفة مجرد مصطلح لا نتفوه به إلا لطمأنة أنفسنا أن الكون

لا يراقبنا، أننا لسنا مرئيين في تلك الشبكة الواسعة من الوجود.

ذاك الحادث ما جاء ببالي إلا لأن الرجل قال أن البيت كان في أحد شوارع "ويستمانستر" وأن الواجهة الضخمة للبيت كانت جاذبة للأنظار لكنها في الوقت ذاته منفرة، ومعتمة، وغريبة. أسرعت فورًا إلى مخاطبة صديق لي، أكبر مني بسنوات، أخذ الجانب البعيد من إنجلترا سكنًا له، لأطلعه عما حدث، ولأسأله إن كان يتذكر الحادث الآخر، الحادث الذي اعتاد ذكره أمامي بصورة عابرة كلما اتجهنا معًا إلى ويستمانستر أو كلما عبرنا مصادفة أمام ذلك المبنى، "ذاك الشيء يحمل في قلبه سوادًا ودمًا، الطلاء الداكن ليس على جدرانه فقط بل في أساسه." تلك الجملة نطق بها صديقي مرارًا لكنني لم أعِرها انتباهًا كاملًا بصراحة. الآن، كنت أرسل له مطالبًا بتفاصيل عن تلك القصة التي لم أرغب في سماعها كاملة من قبل.

تلقيت رده بأسرع مما توقعت، وفي خطابه — لسعادتي — أخبرني أنه بالطبع يتذكر القصة التي أشار إليها في لقاءاتنا السابقة.

"هذا يعني أنك راغب في معرفة جزء من تاريخ السيد هاربوتل، أحد قضاة المحكمة العامة. أو لأكن أكثر دقة، فأنا أظن أنك ترغب في معرفة ذلك الجزء الذي حدث في تلك الفترة الأخيرة من حياته، الفترة التي كانت شتاء لحياته الشخصية والمهنية سواء.

ذلك النزل الذي ذكرته، يقع في ذات المكان الذي احتله

قصر العائلة القديم، والذي كان هناك حين زرت لندن للمرة الأخيرة منذ ثلاثين عامًا. سمعت بعد زيارتي أن القصر سيتم هدمه، وأن تحسينات جديدة سيتم إدخالها على المقاطعة كاملة بعد الهدم، لكنني لا أعرف إن كان قد تم الانتهاء من هدم المكان بالفعل، أم جددوه وأعادوا بناءه.

في كلتا الحالتين لن يشكل ذلك فارقًا لأن ذلك المكان، ذلك المكان يحمل تاريخًا أسود كافيًا ليظل هناك، سواء كان المبنى الذي تحدثت عنه في خطابك هو القصر ذاته أم بيت حل محله. كم كان عمر ذلك البيت؟ هذا ما لن يسعني معرفته أبدًا. قال من قال إن البيت قد بناه روجر هاربوتل، تاجر من تركيا جاء إلى لندن في فترة حكم الملك جيمس الأول. آخرون قالوا إنه هناك من قبلها. لم أتمكن أبدًا من إيجاد الإجابة الحقيقية لذلك السؤال.

لكنني حين دخلت إلى ذلك المكان للمرة الأولى، ورغم أنني كنت في الثانية عشرة فقط، أدركت أن هذا المبنى كان ملكيًّا، كان هائلًا وكان حيًّا.

بُني المبنى بالكامل من الطوب الأحمر الداكن المائل للسواد، بلون الدم المتخثر. الأبواب والنوافذ أحاطت بها حجارة لونها تحول إلى الاصفرار مع الزمن. البيت ذاته كان أعلى من مستوى كافة المباني حوله بعدة أقدام، وكأنه يقف حارس بينها جميعًا. وبسبب ارتفاعه جاءت الدرجات الصخرية المحفورة أمام بوابة المدخل، يحدها من الجانبين درابزون حديدي صلب أسود على هيئة

زهور متشابكة. تطل عليها من الأعلى مصابيح على هيئة أوراق شجر مدفونة في الجدران نفسها. مع مصباحين ضخمين مفتوحين من تلك المصابيح الشديدة القدم التي كان العمال يستخدمون عصي لإضاءتها لتعلن عن وجود حارس للمكان، إما في الردهة، أو على السلالم، أو حول المبنى نفسه.

القاعة الرئيسية بالداخل كانت ضخمة، ذات أعمدة هائلة بكل الأركان وتماثيل عديدة في الزوايا، إضافةً إلى مدفأة تحتل جدارًا كاملًا في الواجهة. ثم وبالجدارين على جانبيها تتفرع الطريق إلى حجرتين أو ثلاث ذات نوافذ عالية. والسلالم الضخمة التي تقود إلى الأدوار العليا. لم يكن البيت على ضخامته حسن الإضاءة على الإطلاق، بلا ثريات ولا مصابيح داخلية. ليس كتلك الإضاءات الفخمة التي تراها في البيوت الآن بالطبع. وحين زرته تحديدًا كانت الإضاءة معتمة أكثر، وقد احتلت خيوط العنكبوت الجدران من الجدار إلى الجدار وتجمع التراب فوق كل شيء وبين أخشاب الأرض. النوافذ كانت ملطخة بتراب وبقايا متر تعود إلى خمسين سنة مضت. كان قاتمًا وذا مظهر جدير بقصر مسكون حينها. القصر الأسود الذي صار أكثر سوادًا.

زيارتي الأولى لذلك المكان كانت بالعام 1808م، بصحبة أبي الأرمل ذي الستين عامًا. في ذلك الوقت كان خيالي جامحًا، كما أخبرتك كنت في الثانية عشرة فقط. وكنت سعيدًا وخائفًا في الوقت ذاته لأنني علمت أنني

أقف بنفسي بين الجدران التي روى لي أبي عنها حكايات عديدة على نار المدفأة في الليالي الباردة ببيتنا منذ أن كنت طفلًا. تلك الحكايات لازمتني وأبقتني مستيقظًا لليالٍ متواصلة. لم أرَ القاضي صاحب المنزل بنفسي لكن والدي رآه بكامل ردائه الأسود وباروكته البيضاء داخل المحكمة، على كرسيه الضخم وبيده المطرقة التي قضت على حياة الكثيرين كمقصلة محاكم فرنسا. كان أبي صغيرًا في تلك الأيام، في العام 1748، وكان قد سمع ككل من عاشوا في تلك الفترة عن القاضي هاربوتل، الرجل الذي لا يعرف الرحمة، الرجل المكروه من الجميع.

القاضي في تلك الأيام كان رجلًا ذا سبعة وستين عامًا، ذا وجه أحمر محتقن وأنف ضخم وعينين كالرصاص. بفم لا يبتسم أبدًا، أخبرنا أبي بأنه لم يرَ في حياته وجهًا أشد رعبًا وكراهية من وجه هاربوتل في تلك الأيام. لم يكن بوسع أي رجل التحديق بوجه هاربوتل أكثر من دقائق قبل أن يشيح بنظره وقد تسارعت ضربات قلبه وانقبضت معدته مهددة بالقيء.

القاضي كان وحشًا، بصوت مجلجل عميق كصوت الشيطان في باطن الأرض. كان مشهورًا بأنه أكثر رجال إنجلترا شرًّا. كان يسمع اللاجئين في المحكمة، ينصت إلى الشكاوى بتلذذ، يراقب الجدالات بعين نهمة، ثم ورغم كل القوى، المستشارين، اللجان، كان يطلق حكمًا قاسيًا، دائمًا قاسيًا، دائمًا حكمًا يحمل في أحشائه دمًا. حتى ولو لم يكن يستحق.

لم يكن يعبأ برأي أحد سوى نفسه، ولا أرهبته أي سلطة حملها أي من اللاجئين إلى المحكمة. كان بطريقة أو بأخرى يجد دائمًا ثغرة ما في القانون ليطلق منها حكمه في أشد المواقف بساطة ليلدغ به المحكوم عليه لدغة مميتة، إن لم يكن موتًا فوريًّا فهو حكم يدفع بصاحبه إلى الجنون، أو العذاب المؤبد، أو الانتحار.

سرت إشاعة — وإن لم تكن مجرد إشاعة — بأنه حتى وإن لم يجد حكمًا ولم يجد مفرًّا من إطلاق سراح المحكومين، كان يكلف أيدي خارجية بإيذائهم، بالطبع ليس بنفسه وبالطبع كان شديد الحذر ألا يتم إثبات أي تهمة عليه أبدًا. لكن الكل كان يعرف، الكل كان يعرف أن هاربوتل هو شيطان الدم في لندن. وللأسف، لم يتمكن أحد من فعل أي شيء حيال ذلك، لم يكن بوسع أي أحد إيقافه..”

الفصل الثاني

في أحد ليالي عام 1746، كان القاضي العجوز قد ترك قاعة المحكمة توًّا، متجاهلًا البكاء بالداخل، ومتجاهلًا النظرات الكارهة التي اعتادها. كان الليل في الخارج قد بدأ يلقي ستاره لذا علم أن موعد عودته إلى بيته قد حان. لكنه ولأن الليل كان هادئًا في ذلك اليوم، أرسل عربته إلى البيت فارغة، وقرر التمشية إلى البيت بصحبة خادمين مرافقين. ثلاثة شوارع فقط كانت الفاصل بين بيته وقاعة المحكمة، لكنه وبسبب النقرس الذي نال من قدميه سار ببطء، متعكزًا على عصا خشبية ثقيلة ومحاطًا على الجانبين بحارسيه.

لم يكن القاضي معتادًا على مقابلة نظرات الناس، لأنه تلقى منها الكثير طوال سنوات عمله. لكنه في تلك الليلة شعر بعين تراقبه من اللحظة التي غادر بها القاعة إلى اللحظة التي كان بها على بعد شارع واحد فقط من منزله. لذا التفت، وأدرك أنه محق في شعوره. ففي أحد الأزقة الصغيرة الجانبية لمح رجلًا، كبيرًا في السن — في نهاية الخمسينيات على الأرجح — طويل القامة يحمل عصا داكنة، يقف مرتديًا باروكة بيضاء، معطفًا أخضر طويلًا مع أزرار بلون الحجارة. كانت ذقنه مرفوعة لكن ركبتيه منحنيتان، مما فسر العصا بيده.

لم يتردد الرجل لأنه تم الإمساك به بل قال بصوت ثابت وواضح:

- معذرة سيدي.

اقترب من القاضي ومد يده للمصافحة، لم يمد الأخير يده

لكنه حدق في الرجل بتركيز وبلا أي تعبيرات واضحة على وجهه:

- نعم؟

- كنت أتساءل إن كان بإمكانك مساعدتي لإيجاد منزل القاضي السيد هاربوتل؟ لديَّ أمر خاص ومهم أرغب بإيصاله له بصورة عاجلة.

أوحى صوت الرجل وهيئته بأنه ذو شأن، أو من عائلة محترمة، وليس رجلًا عاميًّا من رجال الشارع الذين تجدهم في تلك الساعة، لذا رد القاضي بنوع من الاحترام:

- وهل يمكنك الإفصاح عن هذا الشأن المهم أمام شهود؟

- للأسف لا سيدي، عليَّ إيصاله إلى أذنه وأذنه هو فقط.. لا شهود.

قالها الرجل الكبير السن بنوع من عدم الراحة، وبدافع الفضول قال القاضي بصوت ثابت:

- إذًا فما عليك إلا مرافقتنا لشارع واحد فقط، لأن خطوات قليلة هي ما تبقى حتى نصل إلى بيتي، أنا القاضي هاربوتل.

- إذًا يا سيدي، فسأرافقك في الحال.

قالها الرجل باحترام ومد يده للمصافحة من جديد لكن القاضي تجاهله ومضى، ودون اعتراض مضى الرجل خلف الثلاثي حتى وصل الجمع إلى بيت القاضي هاربوتل. أرشد الخادمان الرجل إلى صالة الاستقبال حيث جلس فورًا، وأمامه انهار القاضي في مقعد عالٍ ذي ذراعين، بعد

أن سعل لدقيقة، التقط أنفاسه في دقيقتين أخريين، عدل من وضع باروكته في ثلاث دقائق أخرى. ثم أشار إلى الخدم بإغلاق الباب والمغادرة حتى يتسنى له الكلام مع الزائر الغريب.

على الجهة المقابلة من الباب، من غرفة الرسم، ارتفعت الأصوات المتسامرة والضاحكة. كان واحد من الاحتفالات التي اعتاد القاضي إقامتها في بيته بحضوره أو من دونه قائمًا. بين أصوات الرجال الضاحكة ارتفعت أصوات نساء تضحك بدلال مع صوت الموسيقى، لو عبر أي رجل من رجال الدين في تلك اللحظة أمام نافذة الحجرة لانتصب شعر رأسه طوال الليل.

لكن القاضي لم يلقِ بالًا للأصوات التي اعتادها، ولا ألقى لها الزائر الغريب بالًا هو الآخر. بل جلس مستقيمًا، مقتربًا قليلًا من مقعد القاضي وبدأ بالكلام بسرعة أولًا، ثم مجيبًا عن أسئلة القاضي، ثم بهدوء بعد ذلك.

لم يعلم الخادم الذي اصطحبه للخارج بعد 10 دقائق من الزيارة إن كان الرجل مصرًّا على البقاء أكثر لأنه مفتون أو يُكن احترامًا للقاضي، أم لأنه يرغب في قول المزيد. لكنه لاحظ أن وجه القاضي العجوز الشديد الاحمرار في المعتاد قد أصبح شاحبًا كالشمع الذائب الآن وتحولت نظرته — للمرة الأولى — لنظرة رعب خالص.

بدلًا من الخروج والانضمام إلى الحفلة الماجنة في الداخل، وإلى الزملاء ذوي الأيدي المخضبة بالدماء والنساء الراقصات، والأواني الصينية والأطباق التي كانت

يومًا ما ملكًا لرجل دين وصارت الآن تحمل كؤوس الخمر مجيئة وذهابًا، وقف القاضي وأنفه ملتصق بالنافذة، بعين متسعة ويد ترتجف، يراقب الرجل الغريب وهو يعبر مبتعدًا عن المنزل إلى داخل الليل، إلى قلب الظلام.

التفت القاضي مسرعًا قبل أن يغلق الخادم الباب الأمامي بالكاد، وهو يلوح بيده في الهواء صائحًا بواحد من الخادمين اللذين رافقاه إلى المنزل، يأمره بأن يخرج فورًا ليتابع الرجل الغريب ذا المعطف الأخضر، أمره بأن يذهب خلفه حتى ولو كان ذاهبًا إلى الجحيم ذاته، أخبره أنه قبل انقضاء الليلة عليه أن يعرف كل شيء عنه، مكان إقامته، اسمه بالكامل، حالته الاجتماعية، كل معلومة ممكنة عن الرجل:

- بحق الله في عرشه لو عدت خائبًا من تلك المهمة فسأفصل رأسك عن جسدك وأطعمه للكلاب!!

صرخ القاضي بالخادم الذي أسرع مرعوبًا في إثر الرجل فورًا، ليغيب هو الآخر في الظلام الحالك خارج المنزل القديم.

***

راقب القاضي خادمه والرجل يختفيان في ظلام الليل قبل أن يلتفت ليغادر الحجرة، متجهًا إلى السلالم القليلة التي تفضي إلى الممر المقابل ومن ثم حجرة الاحتفال، بقي وجهه شاحبًا وهو يتذكر كل كلمة من الحديث، كل حرف.

حين مال عليه الرجل الغريب ذو المعطف الأخضر،

مترددًا قبل أن يقول:

- ربما سيدي، لا تعلم. لكن هناك سجينًا معينًا في سجن شروزبيري، حكمت عليه بالسجن هناك لأنه زور مائة وعشرين جنيهًا؟ بائع في محل بقالة يدعى لويس بانويك؟

- فعلًا؟

كان القاضي هاربوتل يعلم جيدًا عمن يتحدث الغريب ذو المعطف الأخضر لكنه تظاهر عمدًا بالجهل، وبالتالي عقب الرجل وهو يحرك رأسه إيجابًا:

- أجل سيدي.

- إذًا فمن الأفضل لفمك اللعين ألا يتفوه بأي شيء قد يؤذيه أكثر، أو يورطك لأنني سأضطر حينها إلى إلحاقك به!

قالها القاضي بنبرة باردة فنظر إليه الرجل مليًّا ثم قال:

- لا سيدي، أمر الرجل والقضية لا أعرف عنهما شيئًا ولا يعنيني أمره في شيء.

- إذًا، سيدي أخبرني ما جئت من أجله دون إطالة لأنني ملتزم بمواعيد أخرى.

نظر إليه الرجل من جديد مليًّا، ثم تحركت عيناه إلى الباب حيث سمع ضحكة نسوية عالية لم يبدُ أنها أثرت في القاضي، ثم عاد ونظر إلى الرجل وهو يقول:

- حسنًا سيدي، نما إلى علمي أن جماعة محددة قد بدأت تتشكل بعد أن علمت بحكمك الأخير على الرجل. تلك الجماعة لا تهدف إلى الخير.

اتسعت عينا القاضي للحظة لكنه تظاهر بعدم الاهتمام

وهو يتراجع في كرسيه:

- مَن أعضاء تلك الجماعة؟

حرك الغريب رأسه نفيًا:

- لا أعرف اسمًا واحدًا منهم سيدي. لكنني أعرف أنها حقيقية.

- أمستعد لتقول هذه المعلومة أمام مجلس المحكمة؟

- لا مشكلة لديَّ سيدي، لكن ليس قبل يوم أو يومين.

- لِم؟

- لأنني لا أعرف أي اسم من أعضائها سيدي، لكنني أعتقد أنه سيكون في وسعي الحصول على قائمة بأهم الأسماء فيها في غضون يومين أو ثلاثة.

- قلت لتوك يومًا أو اثنين.

- بالتقريب سيدي.

- هل هي جماعة دينية أو تنتمي إلى طائفة؟

- أجل سيدي.

تراجع القاضي مصطنعًا ابتسامة:

- إذًا هذا أمر عليك عرضه على المحكمة العليا لأنه سياسي، لا أرى كيف يعنيني هذا التجمع في شيء.

- سيدي، على حد علمي هذه الجماعة ترغب في الانتقام من قضاة بعينهم، وعلى رأسهم أنت.

صمت القاضي قليلًا ونظر خلفه، لم تظهر على وجهه أي تعبيرات للقلق لكن لونه صار شاحبًا، على الأقل عجز عن إخفاء هذا. ثم عاد وسأل الغريب الذي جلس صامتًا

ومنتظراً:

- ماذا تطلق تلك الجماعة على نفسها؟

- محكمة الموت العليا.

- من أنت أيها السيد، ما اسمك؟

- بيتر هوجز، سيدي.

- وما محل إقامتك، سيد بيتر؟

- في شارع ثامس يا سيدي، قرب لافتة الملوك الثلاث.

- وكيف وصل إلى علم رجل محترم مثلك معلومة عن جماعة متطرفة مثل هذه؟ على الأقل أجب عن هذا.

زفر الرجل بصبر:

- سيدي، أحد الأشخاص الذين يهمني أمرهم تم إغواؤه بالانضمام إلى تلك الجماعة. والآن يتم ترهيبه حتى لا يغادرها. لكنه مستعد ليصبح عيناً داخلية لأجل المملكة يا سيدي.. يرى في ذلك خلاصًا له.

- رجل حكيم.. وماذا أخبرك ذلك الرجل الذي يهمك شأنه عن الجماعة أيضًا، هل يعرف أعضاءها؟ هل يعرف الخطة؟

- كل ما أعرفه الآن أن عليك الانتظار سيدي وعدم محاولة الاتصال أو البحث عنهم، وإلا ستصبح أيامك معدودة.

- هل هذا تهديد؟

- لا سيدي، هذه معلومة قيلت لي فقط!

صمت الرجلان لبعض الوقت قبل أن يقول القاضي بنبرة

غريبة:

- أشم رائحة خيانة ودم في تلك الجماعة، وهو أمر سيصل إلى علم الملك عاجلًا أم آجلًا وسيعرف كيف يتعامل معها. متى سأراك من جديد سيد بيتر؟

كان ذلك إعلانًا من القاضي برغبته في إنهاء الحديث فورًا، لذا نهض الرجل ذو المعطف الأخضر معلنًا:

- إذا سمحت لي بالانصراف الآن سيدي، على الأرجح غدًا قبل أو بعد بدء جلساتك.. سأعرف المزيد وسأطلعك عليه.

- افعل هذا إذًا سيد هيجز، التاسعة نهار الغد. وأتمنى ألا تكون هذه الزيارة مجرد لعبة، أو وسيلة للتسلية، لأنني حينها سأتأكد أن تُصلب مقلوبًا سيدي العزيز.

حدق به الرجل صامتًا ثم تحولت نبرته إلى الحيادية وهو يجيب:

- ليس عليك أن تقلق بشأن الألاعيب والخداع سيدي، لو كانت كذبة لما جئت إليك من البداية.

- سأعتمد عليك إذًا.

وبهذا رحل الرجل، وأطلق القاضي أوامره للحاق به فورًا. أغمض عينيه مفكرًا في ما قيل، لكن شيئًا واحدًا لفت انتباهه. الرجل الذي كان يحدثه بدا غريبًا، صوتًا وشكلًا. لم يبدُ عليه أي انفعال لتهديدات القاضي، وذلك الطلاء الأبيض الذي طلى به وجهه، إما كان راغبًا في التخفي أو أنه شديد المرض. في كلتا الحالتين لم يشعر بالراحة.

- تبًّا له!

قالها بصوت عالٍ نسبيًّا.

- أفسد الرجل اللعين عشائي.

الفصل الثالث

أصبح الليل أكثر سوادًا الآن، حتى الهواء صار أثقل والسماء احتجبت خلف ما بدا كطبقة من السخام بدلًا من السحب. لكن على ضوء المصابيح وأنوار المحال القليلة المتناثرة، العربات المارة، شعلات السجائر في الأفواه، استمر الخادم في تتبع بيتر هوجز. كان الرجل يسير ببطء في البداية، لكن لدهشة الخادم كانت خطواته تصبح أكثر ثبوتًا وظهره أكثر استقامة حين يبتعد قليلًا إلى داخل الظلام، ما إن يعبر شارعًا أو زقاقًا.

لم يبدُ على هوجز — الآن وهو في الشارع بين الآخرين — أنه مسن، أو أنه يعاني من مشكلة ما في الوقوف أو السير مثلما كان في بداية الليلة حين قابل القاضي. هل كان يدعي المرض أو العجز؟ سجل الخادم تلك المعلومة في عقله لعله يستفيد منها لاحقًا.

كان راغبًا في إرضاء القاضي، ليس حبًّا فيه.. لا، كان يكرهه وبعمق. ذلك الرجل الكبير السن البشع الوجه والصوت والشخصية كان السبب الوحيد لأن يجد ابنه ذو العشرة أعوام طعامًا يسد رمقه، بالكاد، لكن الفتات الذي ألقاه له القاضي كان يساعد على الأقل، ويعطيه الفرصة ليرى ابنه يكبر. يومًا ما سيصير شابًّا، سيجد عملًا أفضل من مسح الأحذية، وسيصير لديه بيت وامرأة. حتى ذلك الوقت كان على الخادم الطاعة، كان عليه تحمل نوبات القاضي ومنزله الكريه، صوته وأوامره وعينيه اللتين تراقبان وتعاقبان على أخطاء تافهة في حين يرتكب ما تخجل منه الشياطين بأريحية تامة.

تابع الخادم هوجز، يحفظ كل ممر وزقاق يمران به. حتى تنحى الأخير يسارًا إلى فاصل بين مبنيين، طريق صغير غير مضاء أو عامر، تجمعت القمامة والماء الراكد والرائحة البشعة فيه. حين أسرع الخادم قليلًا ليلحق بالرجل قبل أن يغيب عن نظره وانعطف هو الآخر وجد نفسه في مواجهة زقاق فارغ.

أين ذهب؟ لا يمكن أن يكون قد اختفى أو عبر بتلك السرعة إلا إن كان قد عبر ركضًا!

لم يتردد الرجل وانطلق هو الآخر إلى داخل الزقاق شبه أعمى، مستدلًّا فقط بالأنوار على الجهة الأخرى من الشارع. لم يكن مؤمنًا بالخوارق أبدًا، لذا لم يضع في باله أن شيئًا ما غريبًا يحدث هنا، في ذلك الزقاق بالذات. لكنه قبل أن ينعطف مغادرًا شعر للمرة الأولى بشيء ما بارد، كسكين أو إصبع جليدي يعبر من مؤخرة رأسه ليمر على ظهره بالكامل. انتصبت شعيرات ذراعيه ورأسه دفعة واحدة والتفت. حدق في الظلام واتسعت عيناه لكنه لم يرَ أحدًا خلفه.

وقف هناك لدقيقة ملتقطًا أنفاسه، ثم انتصب واستدار بالكامل. هل يحاول السيد هوجز خداعه؟ رأى حركة في الظلام لكنه كان عاجزًا عن رؤية صاحبها بوضوح. بإعادة التفكير، لم يكن السيد هوجز ليتمكن من عبور الممر بتلك السرعة بل والاختفاء عند زاوية الشارع. إذًا، كان في داخل الزقاق.

- مَن هنا؟

صاح بصوت جهوري، وبالطبع لم يتلقَّ إجابة. لكن شيئًا ما بالتأكيد تحرك من جديد.

- سيد هوجز؟!

نادى صوت غريب من بين أكياس القمامة. فتراجع الخادم خطوتين ثم اتجه إلى هناك فاتحًا عينيه على اتساعهما، محاولًا امتصاص أكبر قدر ممكن من التفاصيل. بداخله كان يعرف أن ما يوجد هنا وما هو على وشك رؤيته ليس هوجز. الرجل ربما كان خداعًا أو مراوغًا، لكنه ليس شابًّا ليلعب مثل تلك الألعاب معه. لكنه كان على وشك رؤية أحد ما، أو شيء ما، لأن الصوت الذي كان أوضح الآن كان صوتًا بشريًّا، صوت أنين ضعيف.

توقف الخادم قبل أن يصل إلى وجهته، متسمرًا بمكانه للحظة، فكر في التراجع والخروج من الزقاق ثم إبلاغ أحد رجال الدوريات الليلية بوجود شيء ما هنا؛ تلك كانت لندن في النهاية، وحوادث المساء في لندن كثيرة، وغريبة، وفجائية. الشوارع ليست آمنة حتى ولو لرجل عجوز مثله لا يملك في حياته سوى ثيابه وقطعتين نقديتين في جيبه.

لكن شيئًا ما كان يدفعه إلى الحركة، الشيطان في الفضول. الإصبع البارد على ظهره كان يدفعه بخفة وخفية ليتقدم، لينظر إلى ما خلف الصناديق. ربما كان ذلك هوجز، ربما كان سفاحًا ينتظر لقطع عنقه، وربما لا شيء على الإطلاق. حاول الهرب بتفكيره، "عليَّ العودة إلى الخارج والبحث عن هوجز وإلا سيقتلني القاضي، السيد

هاربوتل لا يرحم. عليَّ العودة إلى الخارج والبحث عن السيد هوجز."

عقله استمر في تكرار الكلمة في حين استمرت قدميه في التقدم بدون إرادة منه. أزاح أحد الأكياس بيده، متأففًا من الرائحة، فارتفع الأنين أكثر. نظرة واحدة إلى ما كان في الجوار خلف الأكياس وتراجع بقوة صائحًا حتى كاد يسقط أرضًا. لا، لم يكن السيد هوجز ولم يكن سفاحًا، كان رجلًا بالفعل، رجلًا كبيرًا مكسور الساق أو الظهر، قعيدًا.. بعين واحدة سليمة وكم رهيب من الدماء على جسده بالكامل.

أصدر الرجل أنينًا أشبه بالفحيح، حاول مد يده طالبًا المساعدة لكنه كان ضعيفًا للغاية، يحتضر وتفوح منه رائحة الخراء والدم والموت. ما جعل الخادم يقفز مبتعدًا، يركض إلى خارج الزقاق مذعورًا، كان بطن الرجل، لم يكن يعرف حتى كيف استمر حيًّا حتى الآن لأنه حتى في ذلك الظلام كان بإمكانه رؤية البطن المبقور والحشا خارجه، الكائنات الصغيرة التعيسة كلابًا كانت أو قططًا وقد بدأت تنتزع أجزاء منها لتتغذى. الرجل المتعفن في الزقاق كان ميتًا، ميتًا منذ زمن، فقط لم تغادر روحه جسده بعد. وها قد صار بالفعل غذاء لأحياء آخرين.

توقف الخادم جوار أحد الجدران على بعد من الزقاق مستندًا بقبضته إلى الجدار، منحنيًا إلى الأسفل وهو يحاول الإحجام عن التقيؤ. لم تكن تلك المرة الأولى التي يرى فيها ميتًا، لكنه لم يرَ مثل هذا المشهد قبلًا، لم يره في حياته

والآن صارت أعصابه مهزوزة وهو يفكر في ابنه، ابنه الوحيد الذي لا يعرف حتى إن كان قد عاد إلى البيت بعد الانتهاء من عمله أم ما زال في تلك الشوارع المظلمة الكريهة يمسح الأحذية.

بيتر هوجز، عليه الإسراع والبحث عن بيتر هوجز، عليه إحضار المال والطعام لابنه. لن يراه ملقى جوار جدار هكذا، يتسول حتى يتعفن ويؤكل حيًّا.

لم يكن الخادم في حاجة إلى البحث بعيدًا، لأن على بعد شارع واحد فقط للأمام كانت لافتة النزل الذي أخبره به القاضي تهتز للأمام والخلف أمام عينيه، اقترب محاولًا السيطرة على أعصابه حين لمح هوجز أمام الباب، يتحدث مع شخص ما. تمهل لأنه لم يرغب في إثارة الشكوك، والتفت الرجل الغريب فجأة تجاهه فتظاهر بالنظر إلى الجهة الأخرى من الشارع محاولًا عدم التفكير فيما رآه، ومحاولًا السيطرة على الرغبة العارمة في التقيؤ.

ثوانٍ وغادر الرجل الذي كان بصحبه هوجز، فتقدم هوجز للأمام قليلًا مبتعدًا عن مدخل النُزُل وتحرك الخادم في تباعه. لكن الأول توقف فجأة وهو يصيح بأسى منحنيًا، باحثًا عن شيء ما على الأرض. كانت فرصة أن يتعرف على الخادم أقل من 10%، هذا ما فكر فيه خادم القاضي. أو ربما كان مجرد مدفوع بالرغبة في المساعدة لأنه اقترب من السيد هوجز دون حذر ليرفع الأخير عينيه إليه حزينًا وهو يردد:

- ويلي، ويلي! أوقعت الجنيهين اللذين كانا معي. يا إلهي،

لن أتمكن من البقاء حتى في الغرفة دون ذينك الجنيهين. كنت أحتفظ بهما هنا في قفازي لكن.. هل تستطيع مساعدتي يا سيدي أرجوك؟

أشار إلى الخادم متوسلًا:

- لا أستطيع الانحناء كفاية لأبحث على الأرض أمام السلالم هنا، أعرف أن ما أطلبه كثير لكن هل بوسعك مساعدة زميل كبير السن عاجز بإحدى قدميه؟ أرجوك سيدي.

لم يكن خادم هاربوتل شديد الذكاء أو قوي الملاحظة كما كان شديد الإخلاص، لأنه لو كان لما انحنى في تلك اللحظة للبحث عن الجنيهين المفقودين، ولانتبه لأن ساق هوجز كانت على خير ما يرام حين أسرع في الطرقات. لكنه لم يفعل، بل انحنى عن طيب خاطر باحثًا بعينيه عن الجنيهين المفقودين ولم يشعر بهوجز يتحرك خلفه إلا بعد فوات الأوان.

جاءت الضربة الأولى قوية على مؤخرة رأسه، صرخ وسقط أرضًا لكنه قبل أن يستوعب ما يحدث جاءت ضربة ثانية، ثم ثالثة، ثم رابعة. ثم ألقى هوجز بالحجر أرضًا وبدأ في الركض بقوة وبسرعة شاب في الثلاثين، مبتعدًا ليختفي داخل الطرقات المظلمة تاركًا الخادم فاقدًا الوعي على الرصيف البارد غارقًا في الدماء.

***

لم يعثر أحد على جسد الخادم حتى منتصف الليل، حين عبرت دورية الأمن الشارع ووجدته هناك فاقدًا الوعي

وداميًا فدقوا أجراس الإنذار. اجتمع بعض الرجال للمساعدة، حملوه ثم حاولوا تضميد جرحه بصورة مبدئية، وهم متعجبون كيف نجا من ضربة كهذه. أفاق الرجل بعد عناء لكنه بدا شاردًا، ينظر حوله بألم محاولًا استيعاب ما يحدث.

لم يكن يعرف إن كان عليه الإبلاغ عن هوجز فورًا، أم أن ذلك سيغضب القاضي. لذا أخبرهم أنه مملوك للقاضي هاربوتل، وأنه خادمه وقد كان في رحلة عمل رسمية له حين تمت مهاجمته، وطلب من أحد رجال الدورية مساعدته في العودة إلى بيت القاضي. كان ذلك الخيار الأفضل، وبالفعل اصطحبه الرجل إلى بيت القاضي الذي استيقظ من نومه وهو يسب ويلعن حين استدعوه إلى الأسفل، ثم وقف هناك في لباس نومه مذهولًا من المشهد، ثم تساءل أخيرًا:

- ما الذي حدث؟

نظر الخادم إلى رجل الشرطة ثم سيده قبل أن يخفض رأسه ليقول:

- تمت مهاجمتي سيدي.

- تمت مهاجمتك؟

- أجل سيدي، وأنا أمام النزل الذي كنت في طريقي إليه لأستفسر عن معلومات تخص سيادتكم، تمت مهاجمتي.

رفع الخادم عينيه إلى هاربوتل متوقعًا أن يرى نظرة التفهم، لكن لدهشته لم يرَ سوى نظرة غضب عارم. اعتدل القاضي مستندًا إلى عصاه:

- عن أي نزل وأي معلومات تتحدث؟ تبًّا لي! لا أعرف كيف تقع اختياراتي على مثل هؤلاء الرجال.

حرك الخادم رأسه بنظرة مندهشة من القاضي إلى رجل الشرطة ثم إلى القاضي الذي لوح بعصاه وكأنه يبصق:

- سيدي، ذاك الرجل خادمي، وهو روح تعيسة لا تتوقف عن الشرب. أكاد أقسم بالله في سمائه أنه كان سكيرًا وأنه كان في طريقه لتدبير كارثة تضر بسمعة بيتي.

ظل الخادم عاجزًا عن الكلام حتى حين لكزه الشرطي بقوة:

- إذًا فلم تتم مهاجمتك؟ وجئت بي إلى هنا بناء على كذبة؟

- بل أكاد أكون واثقًا أنها كذبة، وأنه شجار تم على قروش أو كأس.

صاح القاضي محركًا عصاه من جديد:

- لا يمكنني السماح بمثل هذا الهراء في بيتي، أنا القاضي هاربوتل!

- سيدي...

حاول الخادم الكلام لكن القاضي صاح:

- للأسف لسنا في زمن الجلد أو الجر بعربة الأحصنة في الشوارع كعقاب.

- لكن ما زال بوسعنا التأديب يا حضرة القاضي.

قالها الشرطي باحترام:

- ليلتان في زنزانة باردة مع العطب والفئران كفيلة بمساعدة تلك الأرواح البائسة على العودة إلى الطريق

الصحيح.

- وهذا ما سيكون.

قالها القاضي وهو يومئ موافقًا. طوال تلك المدة لم يكن الخادم قادرًا على استيعاب ما يحدث، ما يتكلم عنه القاضي وما يتكلم عنه الشرطي. حاول الكلام لكنه كان على وشك السقوط وفقدان الوعي من جديد. سمع اسمه يتردد مرارًا على لسان القاضي مع السباب ثم وجد نفسه يُقتاد إلى الخارج، إلى عربة الشرطة، ثم إلى غرفة حجرية باردة مع ماء راكد وعطب وفئران ورائحة قيء وبول.

أُلقي هناك ثم أُغلقت القضبان، دون أن يتمكن من استيعاب ما يحدث. كان الألم يقسم رأسه شطرين، القيء يجتمع في حلقه، وكل ما كان يدور في عقله هو أن ابنه الوحيد سيبيت ليلتين جائعًا، سيبيت ليلتين من دون طعام! ماذا لو اضطر للخروج والعمل ليلًا، ماذا لو انتهى به الأمر في زقاق!

***

في مكتبه بالبيت الأسود في ويستمانستر، جلس القاضي هاربوتل مبتسمًا في الصباح التالي، لم يكن يعنيه أمر الخادم في شيء في الواقع. سيعود في النهاية، وقد كان أحمق لأنه لمح بأن القاضي قد أرسله في مهمة خاصة لاتباع أحد الرجال العامة أمام ذلك الشرطي، كان يستحق قضاء يومين في زنزانة ليراجع نفسه.

لكن على الجانب الآخر، ذلك الدنيء هوجز قد كُشف أمره، وعلم القاضي الآن بشكل مؤكد أن ما هو إلا كاذب

حقير كان راغبًا في إخافته لا أكثر، مجرد محاولة بائسة ليملك سلطة على القاضي الشهير وقد كُشفت الآن. "محكمة الموت العليا" المحكمة الراغبة في اغتيال أو تعذيب القضاة أمثاله، أصحاب الأحكام "القاسية" في حق الآخرين.

كانت فكرة عامة الناس عن "قاسية" مضحكًا في نظر القاضي هاربوتل. ما كان قاسيًا في الحكم على مجرم بالحبس أو التعذيب أو حتى بالإعدام؟ ألم يكن ذلك الرجل، أو تلك المرأة في بعض الأوقات، من اختار بكامل إرادته الحرة التعدي على حقوق الآخرين؟ ألم يكن الإيذاء أو الغش هو اختياره وهو كامل النضج وكامل الاستيعاب؟

مثلًا ذلك الرجل، الرجل الذي قد ألقى به يتعفن الآن في شروزبيري، ذلك الذي تحدث عنه هوجز، لويس بانويك. كان ذلك الرجل يستحق كل سنة حُكم عليه بها. في البداية كان مجرد بائع خضراوات في السوق، تاجرًا طبيعيًّا وهذا ما عرفه الجميع عنه. لكن ما لم يكن يعلمه الجميع هو أنه كان متورطًا في فضيحة، بشأن زوجته. من إساءة المعاملة إلى السرقة، إلى محاولة القتل حتى. لم يكن الآخرون ليعرفوا دواخل بيته، ولم يكن القاضي ليعرف أيضًا بدواخل بيته لولا أنه أقام هناك كمستأجر لبعض الوقت لإتمام بعض الشؤون الخاصة به تلك الناحية من المدينة.

هكذا، أرسل رجال الشرطة لجره جرًّا من بيته واصطحابه أخيرًا إلى إحدى الزنازين ليرقد منتظرًا حتى جاء حكم القاضي بست سنوات من الحبس، الحكم الذي

سيطعنه لاحقًا خلال يوم أو اثنين ليصدر حكم نهائي. كان أمره في يد زميل لهاربوتل، رجل آخر يدعى النبيل ويذرشاين. لكن ذلك القاضي لم يكن قويًّا أو ذا سلطة كافية لينفذ الحكم، وهاربوتل لم يرغب في أن يرى لويس الحقير بعد المحكمة مطلوقًا في الشوارع هكذا. لم يكن ويذرشاين ضعيفًا لكنه لم يكن قاسيًا كفاية. وتلك الفترة في لندن كانت تحتاج إلى يد من حديد وإلا ستخرج الأمور عن السيطرة وسيبدأ كل رجل، وامرأة، وطفل، في تطبيق عدل الشوارع بالطريقة التي يرغبون فيها دون رادع.

الخوف كان الرادع الوحيد الذي منع الطرقات من التحول إلى غابة، والخوف لا يأتي بالتهديد — لا، تلك كانت طريقة الضعفاء — الخوف يأتي بالتنفيذ. بحكم رادع على رجل سرق، بحكم تعسفي ضد رجل خدع، وبالقتل علنًا لقاتل أو عقل وراء محاولة قتل. تلك كانت الطريقة الوحيدة لتحويل الوعي الجماعي للشعب من الغليان، إلى السير منتظمين جوار الجدران، والتماس الأمان في الظلال. ذلك كان الشيء الوحيد الذي يبقي لندن متماسكة، بدلًا من أن تسقط كغبار ورماد بعضها فوق بعض.

هاربوتل كان بيده تلك السلطة، كان الرجل القادر على النظر إلى الشيطان في عينه دون أن يرمش، الرجل القادر على غسل الشوارع بالدماء حتى لا يجد المتسولون، أو المغتصبون، أو القتلة مكانًا يطؤوه.

"اشفق على المسمار وأنت تطرقه، فسينحني. وفوقه

سيسقط الجدار كله."

كان ذلك شعاره، وود لو يكتبه على جدران المدينة. لذا لا، لم يكن خائفًا من "محكمة الموت"، وكان يعرف ما سيقوله في حكمه النهائي على لويس، كان بإمكانه تذوق خوفه الآن والمشنقة تلتف حول عنقه.

المشكلة الوحيدة التي رآها هي ذلك الرجل، هوجز. المخادع الذي نطق بالأكاذيب ثم هرب. لو عرف أحد من الخارج أمر تلك الخدعة الصغيرة والتهديد الذي تلقاه هاربوتل، ربما بداعي القلق عليه ستنقل المحكمة الحكم ليصبح في يد شخص آخر. وربما لن ينطق ذلك الشخص الآخر بالإعدام كما سيفعل هو. ولويس كان عليه أن يموت، اليوم قبل الغد. ليس فقط لفعلته، بل لفضيحة محتملة كان القاضي متورطًا فيها ولم يكن يعلمها سوى ذلك البائس. كان عليه أن يرحل بلا عودة قبل أن تبدأ دائرة قذرة من معلومات وأكاذيب لم يرغب القاضي في التورط فيها أكثر من هذا.

هذا هو السبب الوحيد الذي أرقه، رغم أن هوجز اختفى الآن، بلا رجعة كما يأمل. كان عليه النطق بالحكم بنفسه، مهما كلف الأمر.

***

بينما كان القاضي هاربوتل غارقًا في تفكيره، طرق أحدهم باب المكتب ثم ظهر رأس صغير لامرأة من الباب، متبوعًا بجسد حسن المظهر، تمشت المرأة الهوينى إلى حيث كان القاضي جالسًا، كانت ترتدي فستانًا

منقوشًا بزهور عديدة، وقبعة مربوطة بخيوط زرقاء ورمادية. ذات أنف دقيق وعينين لامعتين. كانت شديدة الحسن لتكون مجرد خادمة، لكن هذا ما كانته، مجرد خادمة.

اقتربت المرأة بغنج من القاضي الجالس خلف مكتبه، وضعت يديها الشاحبتين على كتفيه وهي تهمس:

- وصلنا خطاب آخر منه، جاء في البريد اليوم، هل تستطيع فعل أي شيء بهذا الشأن؟

مدت يديها لتحرك أصابعها بلطف على شحمة أذن هاربوتل المحتقنة، ولم يرفع هو عينيه عن الأوراق بين يديه وهو يجيب:

- سأحاول.

- أعرف أنك ستحاول من أجلي، أليس كذلك؟

قالتها بحنان، فمد القاضي يده متجاهلًا إياها ليضعها على صدره وكأنه يؤدي القسم. لكنه عاد وأمسك الأوراق دون حتى أن يرفع عينيه ليقابل عينيها فتراجعت هي خطوات قليلة وتحركت لتقف جواره:

- وماذا قررت أن تفعل بالضبط؟

- سآمر بشنقه.

قالها القاضي بضحكة مكتومة فضاقت عينا السيدة ومدت يدها إلى فمها بدهشة:

- لا لن تفعل، أنت لا تعني هذا بالتأكيد، يا صغيري!

رفع القاضي عينيه ليقابلها أخيرًا، كانت تحدق بنفسها في المرآة على الجدار، متابعة كيف يتجعد وجهها أو يبتسم،

مراقبة تقاسيمها الدقيقة بإعجاب، فقال مطلقًا صوتًا ساخرًا:

- ماذا؟ لو لم أكن أعرفك لقلت أنك بدأت أخيرًا الوقوع في غرام زوجك.

ضحكت السيدة بصوت بدا كفحيح أفعى ثم عادت لتنظر إلى القاضي:

- ماذا، هل بدأت أخيرًا تشعر بالغيرة منه؟

شخر القاضي وأطلق ضحكة مرة أخرى فتحركت من جديد، وهي تختلس النظرات لانعكاسها:

- لا لم أقع في حبه، كان اختيارًا بشعًا منذ البداية، لكنني كنت لأشعر بالغبطة لو شعرت بالغيرة من باب التغيير.

- بحق جورج، ذلك الرجل اعتدى عليك مرارًا، ضربك، سرق حليك ومالك، حتى أدوات المائدة الفضية الخاصة بك. طردك من البيت ثم انتظر حتى بدأت تستجمعين شتات نفسك، ووجدت حياة صالحة، ليعود ويسرق مالك وحليك مرة أخرى. وأقسم بأذنيَّ أنه كان لينتظر بضع سنوات حتى تصنعي مالًا جديدًا ليعود ويسرق محصولك من أجل طاحونة حياته القذرة.. ذلك الشيء — لا أرغب حتى في إطلاق لفظ رجل عليه — لا يستحق الشفقة، وإذا أخبرتيني الآن أنك تشعرين بالشفقة تجاهه فسأنعتك بالكاذبة فورًا.

ضحكت المرأة بغنج من جديد وهي تربت على فخذ التمثال الجيري على المكتب، حركت رأسها بدلال ثم قالت:

- أرسل يطلب مني مالًا ليوكل محامٍ.

- الخنزير!

قالها وكأنه يبصق الكلمات ثم تراجع في كرسيه، ليدفع يدها العابثة بعيدًا عن رقبته. بدت الخطوط حول شفتيه قاتمة وشرسة واتسعت عيناه وكأنها ستخرج من مقلتيهما، وقفت المرأة جواره تتأمل اللوحات على الجدارن وانعكاس جسدها في المرآة حتى قال أخيرًا:

- لو وجدتِ الأمر طريفًا، أيتها الساحرة الصغيرة، وحاولت الإجابة عن مراسلته من منزلي، فستجيبين عن رسالته القادمة من منزل رجل آخر، هل سمعتِ؟

عبست المرأة وهي تمد يدها لتحاول لمسه فحدق بوجهها:

- لا تحاولي، أنا أعني ما أقوله، أنا وأنت نعرف جيدًا مكانتك هنا ولِم أنت في منزلي بالظبط. أنا وأنت نعرف ما يدور في داخلك. لا تحاولي استخدام الغنج الآن لأنك لن تفلحي.

أعادت يدها إلى جوارها وهي تحدق به وقد بدت شرسة نوعًا، لم تشعر بالإهانة لأنها كانت تعرف أنه محق، لكنها بدت غاضبة من أنه واجهها بتلك الكلمات. إلا أن القاضي قال بحزم:

- أنت كبندورا، أينما حللت تأتِ وراءك المصائب. وأنا لديَّ ما يكفي من المصائب ولا تنقصني فضيحة "القاضي وامرأة السجين الساقطة" لتضاف إليها. لذا، لو نما إلى علمي أن كلمة واحدة حتى أُرسلت من بيتي، فاعتبري نفسك خارجه.

حدقت المرأة به بصمت للحظة ثم رفعت أنفها

واستدارت لتغادر دون كلمة واحدة. راقبها تغادر ثم أطلق السباب، أطلق كثيرًا من السباب وهو يضغط على رأس أنفه. الصداع اللعين والمرأة اللعينة وهوجز اللعين. لم ينفك ذلك الرجل القذر عن القفز إلى مقدمة عقله كلما فكر في لويس بانويك، السجين الذي قيل اسمه في تلك المؤامرة التي كان ضحيتها الوحيد — لحسن الحظ — خادمه.

في البداية لم يدرك لِم يربط هوجز بلويس، لم يكن الأمر لأن اسمه قد تم ذكره في محادثتهما ولم يكن يكثر من التفكير بلا داعٍ لقلقه أو شيء من هذا القبيل. كان هناك أمر ما بالفعل متعلق بهوجز، وكلما فكر أكثر وجد الأمر أغرب. رغم أن الرجل اختفى إلا أنه ما زال يتذكر وجهه بوضوح تام. الهيئة الغريبة التي بدت عجوزًا وفي الوقت ذاته شابة، الملابس الغريبة التي كانت بين ثياب مهرج مسرح وبين ثياب رجل من مكانة محترمة. والدهان الأبيض على وجهه، كان الدهان الأبيض الخفيف من سيمات الموضة في ذلك الوقت وكان الكل يضعه، لكن الرجل في تلك الليلة كان يضع الكثير، الكثير والكثير منه، بصورة مبالغ فيها،

وكأنه يرغب في إخفاء ملامحه. لم يكن القاضي ممن يتذكرون كل الملامح بوضوح، لكن شيئًا ما في ملامح هوجز ظل مربوطًا في عقله. لسبب ما.

نظر القاضي إلى أوراقه من جديد، دون رؤية ما فيها بوضوح في الواقع. كان غارقًا في التفكير، لكن ما إن

حاول استدعاء الجلسة التي دارت فيها المحادثة بينهما، حتى اعتدل في جلوسه فجأة. بدأت جوانب رقبته تنبض بقوة، بالضبط في المواضع التي لمستها المرأة منذ دقائق. المرأة التي لمست من قبل لويس بانويك.

لويس بانويك، لويس بانويك، الرجل المتروك ليتعفن في زنزانته الذي حمل ملامح قوية، رأسًا كبيرًا، أنفًا منتصبًا مرفوعًا، حاجبين كثيفين، بعض الصلع في مقدمة رأسه وشعرًا شديد الكثافة في بقية الرأس، جبهة عريضة، وجسدًا طويلًا قويًّا منحنيًا قليلًا وكأنه يعاني مرضًا في ركبتيه!

كان نسخة مطابقة لبيتر هوجز، انتصب القاضي في جلسته وهو ينظر حوله وكأنه اكتشف فجأة أن الجدران تراقبه. بيتر هوجز لو محوت ذلك الطلاء الغريب عن وجهه، ورفعت تلك الباروكة الملتوية عن رأسه، سيكون نسخة مطابقة للرجل في السجن، لويس بانويك!

سقط قلب القاضي سقوطًا حرًّا للأسفل فجأة، نهض مرعوبًا ثم عاد وجلس، ثم نهض من جديد مناديًا خادمه الذي جاء مسرعًا إلى الداخل. أمره أن ينطلق فورًا ليستعلم من الجهات المسؤولة عن السجين لويس بانويك، أن يعلمهم أنه نما إلى علم القاضي هاربوتل أن هناك شخصًا ذا مواصفات مماثلة تمامًا تكاد تكون مطابقة للسجين، طليقًا في شوارع لندن، وأنه راغب في التأكد إن كان السجين ما زال سجينًا، أم أنه بطريقة ما قد تمكن من الهرب.

انطلق الخادم فورًا لكن ما إن انغلق الباب خلفه، ما

إن سمع القاضي صوت الخطوات على السلالم الأمامية جوار نافذة المكتب وقد بدأت العقدة تنحل قليلًا من على صدره، حتى سمع صرخة قوية قادمة من الخارج، من داخل البيت. أمسك هاربوتل بعصاه بقوة وانطلق وهو ينصت إلى الأبواب تُفتح، والخدم يخرجون. والمرأة التي ميز صوتها مستمرة في الصياح.

حين خرج من المكتب رأى الجميع مجتمعًا في الأسفل، أمام السلالم التي تقود إلى الأدوار العلوية والتي وقفت على باسطتها المرأة الساحرة ووجهها شاحب، ما زالت تصرخ، ما زال صوتها الكريه ينفض أعصاب هاربوتل.

- اخرسي، اخرسي لعنة الله عليك!

صاح بها هاربوتل وهو ينظر إلى الجمع حوله ثم بدأ يأمرهم بالانطلاق إلى حيث كانوا قبل أن ينظر إلى السلم، كانت السجاد الحليبية ملطخة ببقع دم ضخمة! بدا الجميع مستعدًّا للانطلاق إلى الأعلى فورًا والمساعدة، أيًّا كان ما يحدث، أيًّا كان صاحب تلك الدماء. لكن القاضي لم يكن على وشك الاستسلام للقيل والقال حتى قبل أن يعرف ما يحدث، لذا من جديد صرخ:

- عودوا إلى أماكنكم، الآن!

تراجع الجميع بعد أن تبادلوا النظرات بخوف، وبدأ المدخل يصبح فارغًا، لم يكن هناك سوى خادم واحد متبقٍ، حارس باب البيت الذي كان يعلم أن الاختيار سيقع عليه للمساعدة في أي كان ما يحدث، وبالطبع أشار إليه القاضي ليتبعه إلى أعلى السلم، مع المرأة التي كانت

الدموع تتساقط على وجنتيها الآن. حدق بها القاضي بكراهية، بنظرة تشي بصراحة بأنها أخطأت، عرضته للفضيحة، بأنه كان عليها أن تخرس وتستدعيه بدلًا من الصراخ. لكنه لم يتكلم، بل استند إلى عكازه مقاومًا آلام النقرس وبصحبة الآخرين تابع طريقه إلى الأعلى.

أصبحت بقع الدماء أكبر، صارت أقرب إلى خط مستمر الآن، وبدأ قلب القاضي يدق بعنف. قادت الدماء إلى باب حجرته الذي كان مفتوحًا الآن على اتساعه، وقبل أن يخطو إلى الداخل رأى الجسد على الأرض، أمام السرير ذي القوائم العالية. لم يكن وضع الجسد صحيحًا، لم يكن في حاجة إلى الاقتراب ودخول الحجرة ليدرك أن وضع الرأس كان خطأ بالكامل، وأن العنق أسود أكثر من اللازم، واليدين التي وُضعت عن عمد على فمه وعينيه كانت مبتورة الأصابع.

بدأت المرأة تصرخ من جديد فاستدار القاضي ولطمها بقوة طرحتها أرضًا فاقدة الوعي فورًا، لم تكن أعصابها لتتحمل أكثر على أي حال. نظر إليها ثم نظر إلى الجسد في الداخل. مرتجفًا، شاحبًا كالشمع. حاول السيطرة على رجفة ساقيه وقد ابيضت أصابعه على عكازه، متجهًا إلى الداخل. سبقه الخادم الأبكم إلى داخل الحجرة بخطوتين ليشعل الضوء، ليتأكد من أن لا أحد داخل الغرفة يضمر شرًّا للقاضي. الفاعل لم يكن هنا. بالتأكيد لم يكن هنا وقد عرف القاضي هذا قبل أن يعود الخادم إلى الخارج وهو يهز رأسه نفيًا.

كانت تلك المرة الأولى التي يرى فيها القاضي هاربوتل خادمه الضخم مهزوزًا، وشفتيه مضمومتين بقوة. لكنه ما إن دلف إلى الحجرة، ما إن ألقى نظرة أقرب على وجه الفتى الملقى أرضًا حتى شحب أكثر، حتى انعقد لسانه ونبضت مؤخرة رأسه بقوة. كيف؟ كيف بحق الله!

- تخلص من الجسد!

قالها بصوت جعله هو نفسه يجفل، لم يرفع نظره عن الفتى الميت، الموضوع أمام الفراش بعناية على الأرض مبتور الأصابع، مشقوق الحلق والبطن، وعنقه مكسور بما يكفي كي تجعل الرأس نفسه مستقيمًا، مستند الذقن إلى الأرض وكأنه جمجمة جيرية موضوعة فوق المكتب، مع يد تغطي أذنه ويد تغطي فمه. كان رسالة، رسالة وُضعت هنا عمدًا من أجل القاضي. عرف القاضي ذلك كما عرف هوية الفتى ذي العشر سنوات.

احتاج إلى قوة هائلة ليرفع عينيه عن الفتى إلى خادمه الضخم:

- تخلص من الجثة وجِد أحدًا موثوقًا فيه لتنظيف المكان.. الآن وإلا سأضعك مكانه!

كان القاضي يصرخ الآن، لكن صرخاته كانت مهزوزة. وحين عاد إلى الأسفل، لينهار على كرسيه في غرفة المكتب، لم يكن يعرف حتى فيما يفكر، كيف دخل الفاعل، كيف في لحظة قضى على أمنه الخاص داخل جدران بيته؟ وماذا كان سيفعل، كيف كان بإمكانه إخفاء ما حدث عن خادمه الذي سيُفرج عنه بعد يومين؟

كان واثقًا من أن الجثة سيتم التخلص منها، لكنه كان يعرف، بل كان متأكدًا أن خادمه سيعرف ما حل بابنه الوحيد!

كان القاضي هاربوتل مرعوبًا للمرة الأولى في حياته، حتى حين عاد خادمه ليخبره أن السجين لويس بانويك ما زال في سجنه، وأنه لم يهرب. ظل القاضي هاربوتل مرعوبًا..

الفصل الرابع

كانت تُعرف في بيت القاضي بالآنسة "فلورا كورويل"، المرأة التي لا أحد يعرف ماضيها، باقي الخدم ينظرون إليها بعض بعين الغيرة والبعض بعين الحسرة، في حين قلائل بعين الشماتة الخالصة. كان في مظهرها ما يدل على أنها من أصل طيب، كيف انتهى بها الأمر كخادمة في بيت القاضي هاربوتل؟ هذا ما لم يستطع الآخرون استيعابه، لأن في لحظة دخولها إلى ذلك المكان، كان قد تم تقديمها بعناية فائقة على أنها مجهولة الهوية والأصل.. لا أحد عرف أنها زوجة لويس بانويك السابقة، لا أحد كان يعرف علاقتها بالقاضي المسن، ولا أحد كانت لديه فكرة عن أب الطفلة الرضيعة بين يديها.

بعد يومين من حادث الدماء على السلم وبعد أن هددها القاضي هاربوتل بقطع لسانها لتصبح بكماء كما كان الخادم على الباب، حاولت تناسي ما رأته. كان ذلك صعبًا ومريعًا لكنها حاولت. لا لشيء سوى تلك النظرة التي حدق بها القاضي في طفلتها ذات السبع سنوات. نظرة جعلتها تخفي الطفلة الصغيرة ذات العينين الواسعتين وهي ترتجف. لم يكن القاضي في حاجة إلى مزيد من التهديد، تلك النظرة كانت تكفي.

القصة التي حبكاها معًا كانت بسيطة، الدماء جاءت من خادمة في مرحلة المخاض حاولت اللجوء إلى أحد أسرة الدور العلوي لكنها فقدت الكثير من الدم والطفل قبل أن يتمكن أحدهم من فعل أي شيء للمساعدة. ماري — خادمة المطبخ — كانت حاملًا في شهرها السابع، وبالطبع

ماري كانت ستؤكد القصة ببراعة. لكن ماري لم تكن في المخاض، لم تفقد طفلها أو حياتها. حين اختفت افترض الجميع أنها كانت المقصودة، وبقيت فلورا الوحيدة التي تتساءل كيف اختفت ماري وإلى أين؟ وماذا فعل بها القاضي ليحفظ سمعته؟

بعد يومين، كان القاضي في طريقه إلى السجن لينفذ الحكم، وبسبب فيضان على الطريق بين لندن وشروزبري انتقلت الأخبار ببطء شديد، ببطء جعل أعصاب فلورا كلها تنتفض. على بعد أميال كان زوجها السابق في طريقه ليقابل الرب. لم يكن حبًّا ما كنته تجاهه بالطبع، لم يكن يحسن معاملتها، لم يكن شخصًا جيدًا. لكن كان غريبًا أن تقضي كل تلك السنوات مع رجل، في ذات البيت، في ذات الفراش، تأكلا من الطعام ذاته أسفل السقف نفسه، ثم تعلمي أن في أي لحظة الآن سيلتف حبل المشنقة حول عنقه، سيصبح جسدًا تنهشه الديدان أسفل الأرض.

كان تخيل تلك اللحظة مريعًا، وكانت أعصابها منهارة طوال الوقت تقريبًا. تذكرت بيتها الذي صار الآن مهجورًا قرب الميناء. رغبت في الذهاب إلى هناك والنظر إلى المكان نظرة أخيرة لكنها لم تجرؤ على مغادرة البيت، لأن أعينًا كثيرة كانت حولها، وستظل تلك الأعين متابعة لها. لو ذهبت إلى هناك سيعرف الآخرون من هي، وسيعرف القاضي أنها ذهبت. وستبدأ دائرة لن تتمكن من إيقافها.

لكنها لم تتمكن من تجاهل تلك الذكريات، التي فاضت

في رأسها فجأة وبقوة وكأن السد الذي كان يبقيها تحت السيطرة قد انهار فجأة. بيتها الذي صار الآن خاويًا من الشموع، من الخدم، بلا أدوات مطبخ ولا سجاد ولا شراشف. بالتأكيد قد سكن العنكبوت أحشاءه، السقف الذي لم يعد أحد يعتني به لا شك أنه سقط الآن بفعل المطر. هل نما العفن بين شقوق الجدران بعد؟ هل تطفو الطحالب فوق البرك بين أخشاب الأرض؟ هل تعيش الحشرات الآن أو الزواحف الصغيرة في طبقات الخشب الذي كان يومًا ما أبوابًا ونوافذ ذات زخارف؟ الستار الأسود الذي ظلل كل شيء في ذكرياتها ظل يزحف حتى على تلك الذكريات التي سبقت هجر البيت، فما رأت جلسة العشاء مع زوجها السابق إلا تحت سقف ساقط وكراسي بلا أحشاء، بدلًا من الغرفة الحسنة التزيين والنار في المدفأة.

حين تذكرت ابنتها النائمة بين ذراعها المتورمة وقد دفنت وجهها في خصلات شعرها ذي الرائحة الذكية، تتساقط الدموع على وجنتيها المخضبتين بالدماء فتتجلط فوق شعر الرضيعة، لم تكن الذكرى على الفراش ذي الشرشف الحليبي ذي الزهور الوردية، بل كان فوق فراش مكسور القوائم، تطفو بقع العفن الأخضر على شرشفه الذي صار بلا لون، بلا رائحة ولا حياة.

حاولت مراسلة أي أحد تعرفه خارج لندن، لكن الفيضان جعل كل شيء أبطأ، كل شيء أصعب. وبطريقة ما رغم توترها وانتظارها، وجدت ذلك التأجيل

مريحًا نسبيًّا. لا خبر أفضل من خبر سيئ على الأقل. هل كان فعلًا خبر إعدام زوجها السابق سيئًا؟ لم تشعر بالشوق له أو بالحب لكنها ظلت تتذكر رسالته الأخيرة، تلك التي توسل فيها لها بإيجاد محامٍ، تجاهلته كما أمرها القاضي. تخيلت زوجها على الأرض في زنزانته ينتظر وينتظر، دون أن يعلم أن على الجهة الأخرى، رقد خطابه بين حطب النار وسارت الحياة كما كانت تسير دائمًا، وكأنه قد مات بالفعل.

لم ترغب في معرفة لحظة موته، لم تكن ترغب في الشعور بها لأن يديها كانتا ملوثتين هي الأخرى بدمه الذي سيبرد في داخله بعد الحكم، لذا انتظرت موزعة بين الراحة لأن الأخبار لم تأتِ، والنيران التي تحرقها من الداخل. تمنت ألا ينتهي الفيضان، بل أحيانًا تمنت أن يزداد فيبتلع شروزبري بكاملها، بكل ما فيها ومن فيها.

ثلاثة أيام أخرى مرت، دون خبر واحد. لكنها عرفت وقتها أن الأمر قد تم وانتهى، وأن زوجها ميت الآن. حتى ولو لم تصلها الرسالة بعد، جاء وقت الحكم وفات وصار زوجها ميتًا الآن.

قبل مغيب شمس اليوم الرابع طرق باب بيت القاضي وجه مألوف، خادمه الذي لم تره منذ حوالي أسبوع، بدا بائسًا وشاحبًا ومريضًا، حاولت إدخاله لكنه سأل عن القاضي بعين تائهة، "عين ميتة" كانت الكلمة تتردد في عقلها، عين ميتة. أخبرته أنه ليس هنا فرحل، نادته لكنه رحل ببساطة.

بعدها بساعات وصلها الخطاب أخيرًا. لم يكن موجهًا لها بل كان مرسلًا من صديقة في شروزبري بناء على طلب زوجها، رسالة مع الأوراق الرسمية التي توثق حالات الإعدام التي تمت في السجن منذ أيام. أمسكت فلورا بالرسالة بأصابع ترتجف ودون أن تهتم فتحتها، لم تقرأ حتى الرسالة بالكامل، لم تهتم، كانت كمن تقع بين أيديهن إحدى تلك الروايات الورقية المنتشرة في لندن فيبدأن بقراءة سطور النهاية قبل البدء في قراءة الرواية نفسها، كانت تبحث بعينيها عن الاسم بلهفة حتى وجدته، مطبوعًا بالحبر الأسود.

"لويس بانويك__التزوير."

توقفت فلورا عن التنفس لثوانٍ، مرت عيناها على الاسم وقد توقفت عن التنفس ثم بدأت تقرأ السطور السابقة:

المحكوم عليهم بالإعدام، المجموعة رقم 7:

تم تنفيذ الحكم يوم الجمعة 13 كما قُرر على كل من:

توماس بيمر__سرقة بالإكراه.

فيورا جاي__ الاختلاس لمبلغ 11 جنيهًا و6 قروش.

أرثر بوندين__السطو.

ماتيلدا مومري__الشغب.

لويس بانويك__التزوير.

حين وصلت إلى السطر الأخير قرأت مرارًا وتكرارًا، وشيء بارد يجد طريقه إلى جسدها تدريجيًّا. قرأت الاسم خمس وعشرين مرة، خمس وعشرين مرة حتى تخدر عقلها تمامًا. وضعت الأوراق على الطاولة وخرجت

من المكتب راكضة، إلى السلالم حيث رأت ابنتها التي كانت بالكاد في السابعة، حملتها وانطلقت إلى حجرتها لتغلق الباب بقوة واضعة الطفلة أمامها، حدقت في عيني الصغيرة المتسائلتين ثم انفجرت في البكاء.

كان بإمكانها إنقاذه، والقاضي كان بإمكانه تغيير الحكم، بكل تأكيد كان بإمكانه فعلها، لكنه أحجم، تمامًا كما أحجمت هي عن الرد على الرسالة. تخيلت زوجها يُقتاد إلى المشنقة وهو ينظر حوله، الأمل الضئيل داخله بأن زوجته قد أعطت المال لمحامٍ لينقذه، ربما تأخر المحامي بسبب الفيضان لا أكثر، سيظهر في أي لحظة وسينقذه.

لم يكن يعلم أن الخطاب قد صار رمادًا وتبخر الرماد واختفى، لم يكن يعلم أن لا أحد قادم. عرف فقط مع الحبل الثقيل يلتف حول عنقه، اللحظة الوحيدة التي أدرك فيها أن لا أحد سيأتي هي وعنقه ينكسر وقدميه تتدلى في الهواء.

بكت فلورا بحرقة، بكت وهي تعانق صغيرتها الخائفة. الآن صارت الطفلة بدون أب. أخبروها أن أباها مات منذ زمن، لكن الآن صارت الكلمات التي كذبوا عليها بها حقيقية وأصبحت الطفلة بدون أب. مات أبوها وحيدًا، مشنوقًا، بأمل صغير تبخر مع مغادرة الحياة جسده.

بكت فلورا لساعات حتى نامت، لكنها ما إن استيقظت صباحًا حتى انشغلت بعملها، أكلت، نامت في فراش دافئ، تحدثت مع زميلاتها في العمل. ونسيت فورًا زوجها. كانت مادية، تعيش في الواقع لا على الذكريات.

كان الألم يأكلها أجل يوم وفاة لويس، لكنه مات الآن وهي ما زالت حية، لذا أكلت وشربت وعملت دون أن تبكي مرة أخرى، لم تجد ذكراه مكانها في عقلها من جديد.

وبعودة القاضي هاربوتل إلى لندن بعدها بيومين، صار كل شيء كما كان تمامًا، بلا أي تغيير وبلا أي ذكرى لذلك الرجل الذي انتفخ وتحلل أسفل التراب.

القاضي ذاته كان قد استعاد نشاطه وحيويته بعد أن سافر ونفذ الحكم، الآن وقد تخلص من لويس شعر بجبل ينزاح عن صدره، ولأنه كان داخله واثقًا أن الحادث مع الولد الميت كان من تدبير شخص ما يرغب في إنقاذ لويس، يرغب في أن يخضع القاضي للابتزاز والخوف. فبموت الرجل مات التهديد. لم يخبره أحدًا بالطبع بزيارة خادمه فنسي الأمر تمامًا.

انخرط لفترة في حياته الماجنة، حفلاته الغريبة والضوضاء التي تستمر إلى بعد منتصف الليل، تحدَّث مع الجميع وضحك مع الجميع، عاد إلى المحكمة لممارسة عمله، للحكم على آخرين بالموت، وآخرين بالسجن، لتنظيف الشوارع من الحثالة من الطبقة الأقل، من أولئك التعساء المنتشرين كالنمل.

بعد مرور أسبوع على عودته، وفي أثناء وجوده داخل قاعة المحكمة في إحدى قضايا التزوير، وبحضور عدد هائل من الناس، كان القاضي منهمكًا في الصياح، في إطلاق الأسئلة كالمدفع الواحد تلو الآخر على الرجل المقبوض عليه، حاول الرجل الإجابة، الفرار بالكلمات رغم أنه

كان يعلم ما يعنيه أن يكون ماثلًا أمام القاضي هاربوتل، إلا أن القاضي لم يدع له فرصة للكلام أو الاعتراض أو إبداء الرأي. كان يغلي غضبًا وحماسًا وعدوانية حين التفت للحظة واحدة لينظر جهة هيئة المحلفين. في تلك اللحظة خبت الشعلة داخله فورًا، ليعم الصمت قاعة المحكمة تمامًا حتى إنه سمع الطنين في أذنه. بنهاية صف المحلفين، الذين تناوبوا الواحد تلو الآخر على تسليم الورقة التي كتب فيها رأيه لكاتب المحكمة، في نهاية الصف.. رأى رجلًا بكامل لباسه الأسود، شديد الطول، بكتفين عريضتين وعين متسعة، كان يقف هناك صامتًا، ينظر إلى القاضي بثبات ويداه جواره. لويس بانويك!

انقلبت معدة القاضي رأسًا على عقب، واستمر لويس في النظر إليه، دون أن يبدو على وجهه أي اختلاف يُذكر، أي تعبير مفهوم، ثم تحرك مبتعدًا، التفت وهو يحرك رأسه يمنة ويسارًا، ورأى القاضي بوضوح العلامة الزرقاء الكريهة لحبل المشنقة، العنق المنتفخ بالقرمزي مع علامة الحبل، قبل أن يستدير لويس ليهبط سلالم المحكمة ويغادر.

صاح القاضي بقوة شديدة في الكاتب الآخر الواقف على يساره وهو يشير إلى باب المحكمة:

- أحضر لي ذلك الرجل فورًا!

التفت الكاتب إلى السلالم والتفتت بعض الرؤوس من الحضور فصاح القاضي من جديد:

- أريد ذلك الرجل ماثلًا أمامي خلال عشر دقائق من الآن، وإلا سآمر بأن تُنزع عنك ثيابك وتُربط عاريًا على

باب المحكمة. أريد ذلك الرجل حالًا أمامي!

نظر إليه الكاتب بعدم فهم فصرخ القاضي:

- خلال عشر دقائق!

فانطلق الكاتب يركض إلى الخارج دون أن يفهم ما حل بالقاضي. انهار القاضي في مقعده وعينه مثبتة على الباب، لكن أمامه استدارت الرؤوس أكثر، بدأت الأحاديث والهمسات الجانبية، الكل يسأل إن كان أحد رأى من يتحدث عنه القاضي، من كان هناك على الباب؟ عمن يتكلم القاضي هاربوتل الآن؟!

اجتمعت الآراء على أن أحدًا لم يرَ شيئًا، لم يرَ أي فرد ممن كانوا في تلك القاعة أي رجل يدخل أو يخرج من باب المحكمة، وبدأت الهمسات الجانبية تتساءل إن كان القاضي هاربوتل قد فقد عقله أخيرًا! صرخ هاربوتل في الجميع آمرًا بالصمت. وبالفعل صمتوا لكن النظرات تكلمت بأكثر مما تفوهت به الألسنة.

وحين عاد الكاتب إلى المحكمة خاوي الوفاض، بدأت الأحاديث تعلو من جديد.

الفصل الخامس

فور عودته إلى البيت وبعد شجار عنيف دار بينه وبين كاتب المحكمة حتى تدخل آخرون للفصل بينهما، تلقى القاضي هاربوتل خطابًا مغلقًا، ظل مغلقًا لساعات على سطح مكتبه في حين هو يدور داخل المكتب كالنمر الحبيس مفكرًا فيما رآه، فيمن رآه اليوم في قاعة المحكمة.

هل كان عقله يمارس معه الألاعيب؟ على الأرجح هو مرهق فقط بسبب السفر وكل تلك المشاكل التي سبقته. لكنه للأسف ليس مرهقًا بما يكفي ليستحضر وجه ذلك المعتوه كاملًا بتلك الطريقة، بكل تفاصيله وزرقة موته. لم يكن هاربوتل يعرف فيما يفكر الآن أو كيف سيتصرف. لكن تلك النظرة التي رمقها به مَن في المحكمة، ظنوا الظنون بعقله أولئك الـ... لا، لن يسمح لهذا بأن يتكرر من جديد، لا من قريب ولا من بعيد. اتجه هاربوتل أخيرًا ليغرق آلام النقرس والإرهاق في قاعدة كرسيه المخملي المبطن بعناية أمام المكتب حين انهار فوقه جالسًا. وللمرة الأولى منذ ساعات، لاحظ الخطاب.

كان مغلقًا بتلك الطريقة التي تُغلق بها الخطابات القانونية، لا الشخصية، ومذيلًا بخط أنيق بالكلمات التالية:

إلى القاضي المحترم:

إيلايجاهاربوتل،

أحد ممثلي الملك حفظه الله في المحكمة العليا.

كان هاربوتل قد قضى شطرًا كبيرًا من حياته بين قاعات المحكمة وممثلي القانون ليتأكد بمجرد أن وقعت عيناه على الكلمات أن الخطاب من جهة قانونية، لكنه لم يكن

مذيلًا بتوقيع أو ختم محكمة بعينها وهو ما أدهشه. لذا بدأ بفض الخطاب فورًا بيد ثابتة ونظرات متجهمة ليرى ما فيه، وكان التالي:

السيد المحترم هاربوتل،

بناء على تكليفي من "محكمة الموت العليا"، أجدني ملزمًا بإرسال ذلك الإخطار الرسمي إليك، كإنذار رسمي من أجل أن تبدأ حضرتك بإعداد نفسك للمثول أمام مجلس المحكمة الموقرة لمحاكمتك بتهمة القتل للسيد لويس بانويك في الثالث عشر من شهر ـــ في شهور الرب. المجني عليه لكي لا يتم الاختلاط على سيادتك هو "لويس بانويك" مواطن من شروزبري، تم اتهامه زورًا بالانتحال والتزوير والحكم عليه بالسجن في إحدى الزنازين "رقم..." في سجن شروزبري حتى تم إعدامه يوم الثالث عشر بالشهر الماضي. بعد أن تحفظت سيادتك على أدلة التزوير ورفضت اطلاع المحكمة العامة عليها، وبعد الضغط على هيئة المحكمة لإصدار الحكم التعسفي على المذكور أعلاه دون سماع شهادته أو السماح له بتوكيل محامٍ، ولأن مثل تلك الإجراءات كانت غير قانونية، فكان الحكم على لويس بانويك غير قانوني بدوره، مما دفع هيئة المحكمة للانعقاد. وبناء عليه أرسل إليك ذلك الإخطار الرسمي بأن المحاكمة ستنعقد بقيادة القاضي الأعلى لمحكمة الموت العليا السيد المعظم توفولد، وأمام هيئة من المحلفين في الموعد الذي سيتم إخطارك به في خطاب لاحق. وفي حال فُقد الخطاب أو لم يجد طريقه إلى سيادتك فسيتم إرسال خطاب آخر أو

إخطارك شخصيًّا. وفي النهاية علينا الإشارة إلى أن المحكمة تعقد جلساتها نهارًا وليلًا دون كلل، وأن من أجل ألا يكون هناك لبس فسيتم عقد محاكمتك في يوم وحدها دون أي جلسات لمحاكمات جانبية. وإنه بعد الانتهاء من المحاكمة وإذا وجدك القاضي المعظم مذنبًا، فسيتم إصدار حكم نهائي لا رجعة فيه على سيادتك بالإعدام شنقًا أمام أعضاء المحكمة وقاضيها، بعد مرور شهر بالضبط من تاريخ المحاكمة.

كايليب سيرشر،

ضابط مكتب العدل الملكي في مملكة الأموات والأحياء.

بعد الانتهاء من القراءة ألقى القاضي هاربوتل بالخطاب مرة أخرى على المكتب وهو ينظر إليه بمزيج من الدهشة والامتعاض.

- أي هراء هذا؟

نعم كان الخطاب يملك الشكل والرائحة الرسمية، لكن محتواه كان بالنسبة له محض هراء، عن أي محكمة يتحدث؟ وعن أي حكم، وما بحق الرب "مملكة الأموات والأحياء"؟ هل كان المرسل يتوقع منه فعلًا الانسياق خلف هذا الخراء المرسل إليه؟ وكيف سمح له عقله أصلًا بكتابة شيء كهذا؟ وجد هاربوتل نفسه يضحك، ضحك ثم ضحك بصوت أكثر ارتفاعًا ثم سب وبصق ثم ضحك من جديد. لكنه كان شاحبًا رغم كل شيء، وقلبه كان ينبض بعنف. لا بسبب المكتوب، بل بسبب الاسم

المكتوب في الخطاب، اسمين في الواقع وكليهما لهما علاقة ببعضهما.

لويس بانويك الذي لا يرضى بأن يظل ميتًا، ألم يكن ذلك الحقير هو من رأى طيفه في المحكمة اليوم؟ ألم يكن ذلك الاسم هو ما ذُكر أمامه في مؤامرة هوجز الدنيئة التي جلبت الدماء إلى بيته الخاص؟ وهنالك ذلك الاسم أيضًا "محكمة الموت العليا"، كان هذا يعني أن المجموعة التي كانت تخطط لاغتياله كانت تعمل بالفعل وأن الرجل الذي ظهر مرة واختفى لم يكن يكذب، الآن تحركوا من جديد، إما كانوا يقصدون إخافته فقط أو اغتياله فعلًا.

كيف؟ بطلقة مسدس في الظهر وهو خارج من قاعة المحكمة في طريقه للعربة؟ لا، لن يفعلوها لأنهم لن يعرضوا أنفسهم لخطر القبض عليهم، مجموعة تعمل بسرية تامة كهذه لن تغير قواعد لعبتها فقط كي تنال منه، وهاربوتل لم يكن ضعيفًا كي يخشى التورط في عراك أو في محاولة اغتيال. لم تكن يده بريئة بالكامل من الدم. الرب يعلم كم عدد الشجارات التي تدخل فيها في أثناء شبابه في البارات، الرصاصات التي انطلقت من مسدسه منذ سنوات سواء في شجار أو دفاعًا عن النفس، والأعين التي أحاط بها نفسه لتبلغه في حال دار أي شيء مثير للريبة حوله. لم يكن القاضي هاربوتل يخشى محاولة اعتداء أو محاولة قتل. دعهم يحاولوا وسيرد وسيكون رده قاسيًا.

ما كان يخشاه فعلًا هو اسم لويس بانويك، لأن أسفل سقف بيته تعيش المرأة التي لم تعد تحمل اسمه لكنها تحمل

الملامح الرقيقة المميزة التي ستتعرف عليها أي عين من شروزبري على أنها السيدة بانويك. لن يعود مهمًّا أنها تحمل اسم عائلتها الأصلي الآن، سيتعرفون عليها فورًا في حال بدأ أي شيء يتحرك في الأفق. يستطيع إسكات التساؤلات بعض الوقت لكن ليس للأبد، ليس حين يبدأ الناس للانتباه إلى أن لا محامي قد تم توكيله للدفاع عن لويس، ولا أدلة مادية تم عرضها أمام العامة في المحكمة، هذا بخلاف أن الزوجة تعيش الآن في بيت القاضي حتى ولو كانت خادمة، سيعرضه هذا للنظرات ثم التساؤلات ثم سيتورط اسمه في قصص وستصبح فضيحة. هذا ما كان يخشاه فعلًا وليس مجموعة من المختلين عقليًّا سيتمكن رجال الشرطة من التعامل معهم فور إبلاغهم أو تسليمهم الخطاب.

وجد هاربوتل نفسه موزعًا بين خيارين، إما تسليم الخطاب للشرطة وتعريض نفسه للسخرية بسبب محتوى الخطاب الغريب وغير المنطقي، ناهيك عن أنه سيضطر إلى رواية الحادث الذي حصل مع السيد بيتر هوجز منذ فترة، وبالتالي سيضطر إلى تبرئة اسم خادمه الذي بدا وكأنه اختفى تمامًا من على وجه الأرض فجأة. صحيح أنه سيحصل على الحماية اللازمة لكنه لا يعرف أين ذهب الخادم، لا يعرف إن تم البحث عنه وتكليفه بالشهادة فماذا ستجد الشرطة أيضًا. تذكر الطفل المذبوح داخل غرفته، تلك الحادثة التي لم يرغب حتى في التفكير فيها ولو من بعيد. هل ستصل الشرطة إلى الفاعل؟ لو وصلت

واعترف، فماذا سيقول القاضي؟ لِم لم يبلغ عن وجود حادث قتل في منزله وأين ذهب الجسد؟

الخيار الآخر كان تجاهل الخطاب والأمر برمته والمغامرة بأن يظل اسم لويس بانويك ظلًّا يطارده كل فترة، لن يتمكن من اللجوء إلى أي جهة قانونية لمساعدته وسيصبح عرضة لمحاولة الاغتيال في أي لحظة أو للفضيحة، سيتمكن أولئك — أيًّا كانت هويتهم — من متابعة تلك اللعبة الغريبة التي بدؤوها، ومتابعة تهديده، ومحاولة الضغط على أعصابه أكثر أو التلاعب معه. ولن يتمكن حتى من فتح فمه والكلام.

ضرب القاضي التمثال على مكتبه بقوة وهو ينهض مستندًا إلى عصاه وعقله يغلي، لم يكن في حياته غبيًّا، ليس من الرجال الذين يمكن العبث معهم، إذًا فكيف بحق جهنم وصلت الأمور لما هي عليه الآن؟ كيف تمت محاصرته في تلك الزاوية القذرة؟ وهل كانت لديه خيارات أخرى؟ بالتأكيد لو كانت لديه لم يكن يراها الآن.

طرق هاربوتل على مكتبه بقبضته عدة مرات مفكرًا ثم صاح في أحد الخدم الذي دلف إلى غرفة المكتب فورًا، أمره بأن يذهب لإحضار فلورا فورًا. وحين جاءت فلورا إلى داخل المكتب تسعى وعلى وجهها ابتسامة، أمر الخادم بالمغادرة وإغلاق الباب. كانت لتبدأ الحديث لكنها ما إن رأت تعبيرات وجه هاربوتل حتى صمتت تمامًا، وكان هو من بدأ الكلام بسؤال أطلقه بحدة وهو يعود ليجلس أمام مكتبه:

- هل كان لزوجك الراحل أخ توأم؟

أجفلت فلورا حين ذكر هاربوتل أمر زوجها المقتول، وبدأ جسدها يرتجف وعيناها تمتلئان بالدموع فصاح فيها:

- لا، لن تبدئي هذا الهراء الآن.. أجيبي!

ابتلعت فلورا لعابها وهي تضم قبضتيها أمام صدرها:

- لا، ليس لديه إخوة أحياء على حد علمي.

- أحياء؟

- كان لديه أخ واحد، لكنه مات في جامايكا قبل أن نتزوج.

صمت القاضي للحظات ثم سأل من جديد:

- وكيف تعرفين يا مدام، أنه ميت؟

- لأنه أخبرني.

- الرجل الميت؟!

نظرت له فلورا متعجبة من الإجابة ثم قالت:

- لويس أخبرني.

أصدر القاضي صوتًا غريبًا لم تتمكن فلورا من تفسيره ثم أمرها بالمغادرة. نظرت إليه بعجب لثوانٍ ثم التفتت راحلة، تاركة القاضي غارقًا في التفكير، ينظر إلى نقطة ما بعيدًا بعيدًا داخل عقله. لم ينهض القاضي بعد مغادرة فلورا ليدور في المكتب مفكرًا، لم ينهض مستهزئًا بالأمر برمته ويتجه إلى فراشه أو يطلق الأوامر ببدء حفل جديد للتخفيف من تعب أعصابه كما كان يفعل دائمًا.

بل ظل هناك داخل المكتب المغلق على كرسيه، ينظر إلى اللاشيء ويفكر وقد بدا كتمثال عجوز شاحب في ضوء

النهار المنسل من النوافذ العالية للمكتب. الجدران بلون البندق عكست حمرة المغيب على اللوحات المعلقة على الجدران المتقابلة أمام المكتب، فبدا وكأن جدران الغرفة المغلقة تنزف أمام المكتب المطفأ المصباح، والقاضي المتشح بالسواد الجالس على كرسيه العالي خلفه، والتمثال الذي صار شظايا على الأرض أسفل قدمه.

وحين حل الليل، ظل القاضي هناك داخل المكتب الدامي.

الفصل السادس

لاحقًا، وقرب انتصاف الليل قرر هاربوتل مغادرة بيته. لم يعد يطيق البقاء في ذلك المكان دقيقة واحدة أكثر ولم يعد راغبًا في التفكير في أمر لويس اللعين أو الخطاب القذر أو أي شيء حدث ويحدث في ذلك المكان. لم يعد راغبًا في تعذيب نفسه. كان في حاجة إلى الترفيه قليلًا، لذا أمر خادمه بإرسال رساله إلى صديقين، أو زميلين ليكون أكثر دقة، السيد ثافيس والسيد بيلر، اللذين كان يعرف أنهما ساهران بالتأكيد في حانة لينكولن، ليخبرهما بأن القاضي راغب في أن يقضي معهما المساء، ليلعب الجميع ويشربون ويتبادلون الحديث في قاعة الاحتفال بمنزل القاضي.

وكالمعتاد كانت الخطة تنص على أن يذهب القاضي في عربه خاصة — ليست عربته — ليقلهما من أمام الحانة لينطلقوا جميعًا إلى بيته، فلم يرغب في أن يراهما أحد يتمشيان من الحانة إلى البيت، ولم يرغب في أن يتساءل أحدهم لِم يسهر الرجال المحترمون ليلعبوا ويشربوا في مثل ذلك الوقت المتأخر. أجل كان يعرف أن الجميع يعرف ما يحدث داخل منزله، لكنه كان راغبًا في الحفاظ على الكذبة التي أخبر نفسه بها، أن لا أحد يعرف، أن الجميع يظن منزله وقورًا وله هيبته واحترامه.

لذا انطلق فورًا بعربته المغلقة التي تم استئجارها من أجل تلك الليلة، وانتظر داخلها، على المقعد الوثير خلف الستائر السوداء على النوافذ حتى يأتي الرجلان. لم يكن يحب الانتظار، ولم يكن عليهما بالتأكيد إثارة أعصابه بجعله

ينتظر في تلك الليلة بالذات! لكنه لم يجدهما على الباب حين وصل إلى الحانة واضطر إلى أمر السائق بالتوقف على مسافة لائقة والانتظار.

أمر خادمه بالنزول وانتظار السيدين ثم إرشادهما للعربة واستند برأسه إلى الجدار الخشبي المبطن داخل العربة المغلقة، لف نفسه بعباءته وأغلق عينيه محاولًا تصفية ذهنه. كان بمقدرة هاربوتل النوم مثل البحارة، واقفًا أو مائلًا أو داخل مركبة تتحرك. لذا بدأ تلقائيًّا يشعر باسترخاء جسده، وبالمعالم الخارجية لكل شيء، من أصوات ورائحة، تتحول شيئًا فشيئًا إلى مجرد أطياف لعالم غير واقعي محيط به. بدأ ينفصل عن كل شيء ويغرق داخل قوقعته الخاصة. كان ذلك حتى سمع صوتيهما، يضحكان بوقاحة، يمزحان، يطلقان بعض الألفاظ التي لم يكن عليهما قولها هكذا في العلن.

لكن حين بدأت العربة في الميل وهما يصعدان إلى داخلها أدرك لِم عدم الاهتمام الفجائي بمظهرهما، كانت رائحتهما القذرة مشبعة بالكحول وصوتاهما الكريهان ينطقان بالكلمات بلسان ثقيل غريب. تململ قليلًا لكنه لم يملِّكهما شرف أن يفتح عينيه وينظر إليهما، كان قد فقد حماسه فجأة لتلك الليلة ولتلك الصحبة الكريهة، لذا قرر أن ينتظر حتى تصل العربة إلى بيته ثم سيعطي كليهما دفعة إلى خارج الباب وسيتركهما في الشارع دون وسيلة مواصلة ودون ترحاب إلى داخل بيته.

تحركت العربة وتمايلت على الطريق، والقاضي مستند

إلى البطانة الحمراء بلون الكرز للعربة وعيناه مغلقتان، أعلنت الأجراس أن الساعة الآن صارت الثانية عشرة ليلًا، بدقات منتظمة، سمعها من مكانه داخل العربة رغم إسراعها، كل لندن سمعتها كما هي الحال كل ليلة. الآن صار رفيقاه في العربة صامتين كالموت، لم يعد أي منهما يمزح أو يضحك أو حتى حاول أي منهما إفاقة القاضي.

مرت دقائق قبل أن تسرع العربة أكثر، وفجأة شعر القاضي بجسده يندفع بقوة إلى الأمام، ثم من أحد جانبي العربة إلى الآخر، ثم استقر في منتصف المقعد وهو يستند بيده إلى السقف، أطلق سبة وفتح عينيه. في البداية لم يرَ أي شيء، لكنه حين أغلقهما وفتحهما من جديد، لم يرَ رفيقيه أمامه. شعر بهما جواره ونظر، وبدأ قلبه يدق بعنف قبل حتى أن يفتح فمه.

الجسدان على يمينه ويساره لم يكونا لصديقيه، كانا غريبين بلباس غريب مميز لرجال الشوارع أو الأمن المتخفي في رداء رجال شوارع، وبيد كل منهما ميز فوهة سوداء كالجحيم موجهة نحوه. انعقد لسانه قبل أن يفلت منه أي صوت. نظر حوله وهو بكامل انتباهه الآن، كانت العربة قد أسرعت حتى كادت عجلاتها تنفصل عنها، وحولها، عبر النوافذ التي تطايرت الستائر حولها وفي ضوء القمر لم يعد يرى لندن أو مبانيها، كانت الرحلة تسلك طريقًا آخر تمامًا. انطلقت العربة على طريق رملي غير ممهد، ومن حولها انعكس النور الفضي القادم من القرص المكتمل بالسماء على برك بدت كالمستنقعات،

ينبجس الطين منها، وأشياء أخرى بدت كفزاعات الحقل المكسورة، أشياء بدت غريبة وجامدة لكنها تراقب العربة تسير، الموجودات والعربة كانت تحوطها أشجار ميتة، سوداء كالفحم، بفروع شاهقة، شاهقة حتى إنها كادت تخترق طبقات السماء. لا ورقة واحدة في الأشجار، لا بيت ولا رجل ولا حياة حوله. كانت عربته تجري في طريق ميت، وحين رفع عينين مرتعبتين لينظر إلى السائق مستفسرًا، وجد نفسه يتطلع إلى وجه كان هو الآخر ميتًا.

ذلك الرجل الذي يقود عربته كان خادمًا له، تعرف على الوجه الطويل والعينين الغائرتين، رآها في خدمته للمرة الأخيرة منذ خمسة عشر عامًا مضت. ثم وبعد أن أصابته الغيرة من الرجل ودبر له سرقة أوانٍ فضة من بيته، تركه داخل زنزانة عرف بعدها بأيام أنه مات فيها نتيجة الحمى.

لم يكن ما يراه منطقيًّا أو ممكنًا، التفت مذعورًا ليحدق في الجسد الجالس على يمينه، كان منتفخًا. رجل لم يكن سمينًا في حياته ربما، لكنه الآن كان منتفخًا. شفتان زرقاوان وعين قوية وغائرة ووجنتان نمت أسفلهما بقع رغم الضوء الشحيح استطاع تمييز لونهما المخضر. وكان يعرف ما هذا اللون، من الرائحة، لم تكن رائحة اللحم المتعفن غريبة عليه، زار الكثير من القبور ليتعرف على تلك الرائحة في أي مكان.

هل كان نائمًا؟ يحلم؟ لا. كان واثقًا من أنه مستيقظ. لم يغفُ ولو للحظة منذ أن توقفت العربة أمام الحانة وحتى الآن، لكن ما رآه لم يكن منطقيًّا. خشي أن يلتفت لينظر

إلى الرجل على الجهة الأخرى منه. في تلك اللحظة أدرك القاضي أنه بالفعل خائف، بل مرعوب. لوهلة راودته الرغبة في المقاومة، الصراخ، دفْع الرجلين والقفز. لكن أيام شبابه كانت قد ولت ولم يعد بإمكانه المقاومة بذراعه مثلما فعل في الماضي. ستجد الرصاصات في تلك الفوهة الموجهة إليه طريقها إلى صدره قبل أن يصرخ حتى بحرف الـ"ج" في النجدة.

ولن تأتي النجدة، حتى ولو حاول الهرب منهما، حتى ولو بمعجزة ما استطاع دفعهما والقفز إلى خارج العربة دون أن تتحطم عظامه أو يصطدم رأسه بالأرض وينفلق إلى نصفين. لن تأتي النجدة لأنه كان وسط اللاشيء، صحراء رمادية وسوداء من ماء راكد وشجر ميت وطريق ولا شيء سوى طريق وفراغ وعفن وسماء غريبة. كان محاصرًا.

قطع حبل أفكاره دفعة أخرى اندفعها إلى الأمام فحاول الاستناد إلى السقف، ثم بدأت العربة تبطئ وبدأ المقعد أسفل منه يأخذ طريقه إلى الثبات. كانوا على وشك التوقف. رغمًا عنه اتجهت عينه إلى خارج النافذة على يساره مباشرة، وهنا انقبضت معدته وسقط قلبه إلى الأسفل. وسط الفراغ والسواد رأى المنصة الخشبية العالية ذات السلالم، تقف هناك وسط اللاشيء كجدار قلعة حطمتها الحرب، المنصة التي كانت تعلوها مشنقة سوداء تتأرجح في برد الليل. حاول القاضي الصراخ، هذه المرة فتح فمه محاولًا الصراخ لكن كل ما خرج من حلقه كان

صريرًا خائفًا. عبرت العربة من جوار المشنقة وانعطفت قليلًا ليرى القاضي المشهد بالكامل الآن.

جوار العربة كانت المشنقة على المنصة المرتفعة مجرد بداية، امتدت منها سلاسل هائلة الحجم متجهة إلى الأعلى، إلى منصة أكبر ذات سلالم أعلى تراصت عليها خمسة أو ستة أعمدة، تلك الأعمدة كانت تتدلى منها بدورها حبال للشنق لكن تلك كانت مهترئة وممتلئة بالأجساد بالفعل. خمسة أجساد تتأرجح: واحد قد انتفخ حتى أوشك الرأس الانفصال عن الجسد، والثاني كان نصف الرأس مفقودًا بالفعل واجتمعت الغربان لتنهش ما تبقى في حين تقشر اللحم عن إحدى الذراعين وتساقط فوق كومة من الأجساد الملقاة بعضها فوق بعض بالأسفل على أرض المنصة، والثلاثة أجساد الباقية كانت تتأرجح بفعل الهواء، للأمام والخلف، وقد بدأ بطن واحد منهم بالتحلل بالفعل، وانفجر مفتوحًا ليبدو من داخله الحشا الأسود سواء الأرض أسفله.

على جانبي تلك المنصة كانت السلاسل الضخمة التي ربطتها بالمنصتين الأخريين الأصغر حجمًا، وتلك السلاسل كان يتدلي منها عدد رهيب من الأجساد بدورها. البعض مكتمل، أجسام تحولت لهياكل عظمية كاملة، ذراع أو ساق دون بقية الجسد، رأس مذعور مفتوح الفاه بدأت الطيور بأكل لسانه. عشرات بل ومئات الأجساد الميتة كانت هناك مربوطة ومعروضة أسفل السماء المقمرة، أسفل النور الفضي الساطع.

ارتجف القاضي من رأسه لأخمص قدميه وعيناه تتبعان كل تلك التفاصيل حوله، الرائحة كانت لا تطاق، عطر التفسخ القذر المكلل لكل شيء قلب معدته حتى كاد يتقيأ هنا داخل العربة، لكنه كان خائفًا.. خائفًا من أن يضطر إلى التوقف والنزول. سمع صرير السلاسل على الجهة الأخرى، بيمينه فالتفت منتفضًا، ناظرًا إلى الوجوه التي تحدق إليه عابرة من جوار العربة البطيئة. عدد لم يستطع حصره، كانوا يمشون معًا، مقيدي اليدين والساقين كالمساجين في طريقهم إلى الزنازين. القيود كانت متصلة بسلسلة أصغر حجمًا لكنها تمضي إلى الأمام، إلى نقطة ما خلف المنصات. والمربوطون فيها كانوا موتى أيضًا، فقط موتى بطريقة مختلفة. رأى وجهًا قد فقد عينيه، كليهما، طعنة في محجري العينين. لأن رأسه من الخلف كان مثقوبًا. رأى رجلًا بلباس مهترئ بدا كجندي قد ثقبت الرصاصات جسده بالكامل، كان ينزف مادة سوداء جيلاتينية كالقطران.

الباكي أمامه كان منحور العنق، وكان مستندًا برأسه إلى صدره حتى لا يسقط، اللحم على جانبي الفتحة كان متعفنًا ومسودًا، وكاد يسقط أكثر من مرة في أثناء سيره. ثم وحين كاد القاضي يبعد عينيه رآه، الوجه الذي مر أمام نافذة العربة مباشرة الآن، الشعر الشائب قليلًا والجسد القوي لكنه كان شديد الانتفاخ الآن، كانت أشياء بدت كالطحالب قد نمت على جانبي رأسه، كان يسند بطنه كالحوامل حتى لا ينفجر بفعل التحلل. كان بشعًا،

مشوهًا، ميتًا غرقًا لكنه عرفه، عرفه فورًا وتعرف الرجل عليه كذلك لأن عينيه اتسعتا ثم التصق وجهه بالنافذة، فتح فمه غاضبًا ليصرخ لكن لسانه المنفوخ البنفسجي منعه، طرق النافذة بقوة، مرة، مرتين، صرخ بلا صوت ثم جاء صوته كأنه صوت زئير المحيط وقت العاصفة، انفجرت الصرخة الغاضبة وهو يطرق النافذة بقوة حتى بدأ الجميع حوله يصرخون هم الآخرون. عيناه كانتا متسائلتين، لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟! لكنه بات يعرف، الآن وقد مات بات يعرف ما حل بابنه، بات يعرف ما كان القاضي متورطًا به. لذا لم يعد يهتم للسلسلة التي توقفت بسببه ولا الصارخين حوله في ألم وهم يتدافعون محاولين معاودة المسير، طرق النافذة بغضب وقد سقطت بطنه عن يديه، تهدلت وبقوه الجاذبية انفجرت. تناثر الحشا إلى الأرض ومعه انفجرت رائحة عفنة قوية أجبرت القاضي على إغلاق عينيه والتراجع إلى مؤخرة العربة، واقفًا حتى لا يصطدم برفيقيه، وأنفه ورأسه كله يحترق، بينما سقط الرجل أرضًا متعثرًا فوق بطنه، داسته الأقدام الأخرى، وتحولت صرخاته لبكاء. الآن عرف القاضي ما حل بخادمه المختفي.

***

انعطفت العربة عطفتها الأخيرة متجهة بعيدًا عن الجمع المقيد بالسلاسل ليرى القاضي المنصات مرة أخرى، والهيكل الشديد الطول المتشح بسواد تام الجالس فوق أكبرها، معقود الذراعين وبفمه سيجار ينفث الدخان.

حين اقتربت العربة فتح عينيه، كانتا بلون الجبن الأبيض، نهض وأصبحت قامته سامقة، أخرج السيجار من فمه، ومن جيبه أخرج حبلًا آخر طويلًا، هزه وهو يصيح بصوت جهوري هز الأرض أسفل العربة وأسفل كل شيء:

- مشنقة جديدة من أجل القاضي الشريف إيلايجا هاربوتل!

في تلك اللحظة سقط القاضي إلى أرض العربة فاقدًا الوعي.

الفصل السابع

لم يبقَ القاضي هاربوتل فاقدًا الوعي لفترة طويلة، لأن الأيدي حوله أمسكت بذراعيه، لطمته، وأعادته عنوة إلى مقعده وهو يترنح. فتح عينيه متمنيًا لو كان ما رآه كابوسًا والآن سيستيقظ. لكنه رأى ما رآه قبل السقوط، لم يكن كابوسًا. ولو كان، كان عاجزًا عن الصحو.

اتجهت العربة بالجمع بعيدًا عن المنصات والسلاسل إلى مبنى حجري ضخم ووجد القاضي نفسه يتوقف مباشرة أمام ممر حجري طويل مضاء بمصابيح زيتية، جدران حجرية لم يستطع رؤية آخرها. فتح باب العربة رجلان آخران وتسلماه من سجانه ليصطحباه عبر الممر، بدا كطريق إلى زنزانة لكنه بالتأكيد كان عاجزًا عن رؤية الزنزانة في نهايته. التفت مرعوبًا إلى اليمين واليسار محاولًا رؤية أي شيء بتلك الممرات المتفرعة السوداء، لكنه لم يرَ سوى أجساد متقرحة ملقاة أرضًا تئن، أو أجسام غريبة ضخمة بعباءات ترتدي قناع الطاعون، وتسير ببطء ممسكة بمبخرة مشتعلة، تديرها في دوائر وهي تتمتم بهمسات. مر جواره جنود قد بدأت أجسادهم تتحلل، هياكلهم قد ظهرت من منتصف وجوههم وكانوا بزي عسكري كامل، نظر إليهم بهلع لكنهم نظروا إليه بكراهية وعبروا من جواره دون أي رد فعل آخر. مرت أصواتهم عبر الممر، أصوات أقدامهم فقط، دبيبهم على الأرض. لا أحد يتحدث إلى زميله، لا أحد يصدر صوتًا سوى الدبيب أو التمتمة، في حين سيمفونية البكاء والأنين ترتفع من الخارج مع عويل الرياح.

انتهى الطريق إلى باب خشبي أسود اللون، طرقه واحد من المصاحبين له طرقتين ثم فتحه لينتظر هو في الخارج في حين دخل هاربوتل بصحبة السجان الآخر إلى قاعة ضخمة. صُعق فورًا مما رآه أمامه، لأن ذلك المشهد، في أي يوم آخر، في أي حالة أخرى، كان ليبدو له كمشهد يراه كل يوم بلا انقطاع، لأعوام لم يعد يتذكر حتى عددها من حياته. كانت القاعة شبه دائرية، سوداء الجدران تمامًا مع عدد لا نهائي من الشموع بين أحجار الجدران. السقف كان عاليًا، حين رفع رأسه لينظر رأى أقفاصًا فارغة تتدلى، وسلاسل وأحبالًا، فيمَ كانت معلقة ومَم كانت تتدلى؟ لم يتمكن من رؤية هذا لأن الظلام بالأعلى كان شديدًا.

أمامه كان المكتب الضخم العالي فوق منصة، في المنتصف على الكرسي الخشبي الضخم جلس قاضٍ، بكامل ثيابه الحمراء بلون التوت، يرتب الأوراق أمامه. وعلى يساره كانت الكراسي المرتبة في صفين بعضهما فوق بعض على درجتين، فارغتين، لكن الباب الجانبي كان مفتوحًا ورأى هاربوتل آخر أفراد هيئة المحلفين يختفي خلفه.

على المقاعد في منتصف القاعة جلس عدد رهيب من الناس، رأى محامين بكامل ثيابهم الرسمية: البعض يعبث بقلمه، البعض مشغول بأوراقه، آخرين يهمسون في آذان موكليهم. رأى كاتب المحكمة، اثنين منهم، يدوران هنا وهناك لممارسة أشغالهما. رأى الشهود والحضور من

أهالٍ وموكلين وأصحاب قضايا، جالسين ورؤوسهم مدلاة إلى الأسفل، يرتدون الرمادي جميعًا، لا أحد يبتسم، لا أحد منهم يتكلم. جواره كان قفص وكان رجال الأمن الخاصون بالمحكمة. كانت القاعة كاملة التجهيز، كنسخة جحيمية من القاعة التي عمل بها سنوات حياته كلها، كأي قاعة محكمة حضر بها أو أصدر حكمًا بها، فقط كان الآن على الجهة الأخرى من المنصة الضخمة، بين يدي السجان.

ارتفع صوت المنادي معلنًا بحشرجة لكن بصوت جهوري:

- إيلايجا هاربوتل، ضد الملك.

تقدم إيلايجا مدفوعًا إلى الداخل حتى صار أمام عيني الجميع، فصاح قاضي المحكمة بصوت كالرعد:

- هل المدعي عليه لويس بانويك حاضر أمام هيئة المحكمة؟

وببطء، نهض بانويك من بين الجالسين. تسمر القاضي في مكانه وهو يحدق بعيني الرجل الكارهتين، كان بذات الهيئة التي رآها في المحكمة، مرتديًا الأسود وبعنق مزرق ومنتفخ، بوجه لا يبتسم لكنه يحدق فيه بقوة. قبل أن يجد هاربوتل الفرصة ليفعل أي شيء أو يقوم بأي حركة نادى القاضي من جديد بصوت بدا وكأنه يهز القاعة نفسها:

- أحضر المتهم.

وهناك، أمام منصة المحكمة وقف هاربوتل محاصرًا في حين تقدم بانويك بخطى واثقة ليقف أمام القاضي، ليفتح

فمه الأسود ويتكلم. نص اتهامه صريحًا، إيلايجا هاربوتل حكم عليه بالإعدام زورًا وبهتانًا، دون أن يملّكه الفرصة ليوكل محاميًا ودون الالتفات إلى أي أدلة قدمها إلى المحكمة، بل وحاول الإسراع في التخلص منه ليحصل على زوجته وابنته. التفت ناظرًا إلى هاربوتل بكراهية ورغم الموقف وجد القاضي نفسه ينظر إلى بانويك شذرًا وهو يصيح:

- أنا لم أحصل على زوجتك وابنتك أيها التافه، جلبتهما إلى بيتي لأعتني بهما بعد أن أوسعتَ زوجتك ضربًا وسرقت مالها وحليها مرتين.

طرق القاضي بمطرقته كي يصمت هاربوتل وصاح فيه:

- لن نتكلم حتى آذن لك.

التفت هاربوتل إلى القاضي بسرعة ثم إلى بانويك ليتكلم بانويك من جديد:

- ما فعلته فعلًا هو تزوير مال من فئة الستين جنيهًا، زورت إحدى عشرة ورقة كي أتمكن من التخلص من الدين وأتمكن من مواصلة حياتي، أبلغ أحدهم عني وتم تقديمي إلى المحكمة. لكنني لم أسرق مال زوجتي ولم أسرق فضياتها. هي أضاعتها من أجل أن تبدو في أحسن حال أمام عشيقها، وبعد أن ضبطتها بجرمها ضربتها.

- كاذب!

صرخ هاربوتل فصاح فيه القاضي من جديد ليصمت وتابع بانويك:

- تم إحضاري للمثول إلى هيئة المحكمة بعد أن قبضوا عليَّ

وجروني من بيتي، هي من أبلغ عني وقد زورت لي تلك التهمة بناء على اقتراح من السيد إيلايجا هاربوتل. ومثلت أمام المحكمة واعترفت بتزويري الجنيهات لكنني أنكرت أنني سرقت وهو ما لم أفعله سيدي.

رفع القاضي ذو الرداء الأحمر صوته بالسؤال:

- هل تم تقديم الأدلة ضدك في المحكمة؟

- لا سيدي.

- هل أُحضر الشهود ليشهدوا ضد جريمتك التي ارتكبت في حق زوجتك في المحكمة؟

- لا سيدي.

وهنا صاح القاضي هاربوتل مقاطعًا:

- تم التحفظ على الأدلة ضدك لأن المحكمة وجدت أن لا حاجة بها لعرض الدليل، لوجود شهود ضدك بالفعل. لم نكن في حاجة حتى لجلب الشهود لأنهم خافوا أن يظهروا بالعلن فتؤذيهم.

نظر القاضي إلى هاربوتل بكراهية:

- وكيف سيؤذي سجين شهودًا؟

كانت نظرته ساخرة، وحين التفت هاربوتل ليواجهه صاح من جديد:

- المتهم إيلايجا هاربوتل تخطى القضاء من أجل منفعة شخصية، زور للسيد لويس بانويك تهمة إضافية ورفض عرض الأدلة على قاعة المحكمة أو على الشهود. ثم حكم عليه بحكم زور.

صرخ هاربوتل معترضًا فذكره القاضي بأن حكم التزوير

هو سبع سنوات من السجن وليس الإعدام، وحكم السرقة – في حال كان سرق بالفعل – كان اثنتي عشرة سنة لكن ومع غياب الأدلة يوضع السجين أسفل سجن مشدد مع أعمال شاقة، لا الإعدام. ثم ذكره بأن الزوجة نفسها كان عليها أن تحضر إلى قاعة المحكمة وتشهد ضد زوجها لأن تلك القضية أمر عائلي وحضورها كشاهدة واجب. تجادل هاربوتل بعصبية مع القاضي الذي نظر إليه بدونية ساخرًا وهو يرد على كل كلمة يقولها، دون إبداء أي اعتبار أو أي اهتمام لما يحاول هاربوتل تقديمه، كانت بين كلماته أكاذيب، لكنها أكاذيب لا يعلمها سواه، وتلك المرأة في المنزل. لذا كان يتكلم بثقة تامة، كما فعل دائمًا، كما فعل طوال حياته.

لكن القاضي على المنصة كان لا يرحم، صوته الجهوري ونظرته القاسية البشعة. كان يضرب الكلمات واحدة تلو الأخرى كالسكاكين وكأنه قد عقد العزم على الحكم بالفعل والبقية كانت مجرد تسلية لوقته، مسرحية أخرى كان يؤديها لأنه يرغب في تأديتها لا لأنه لا يعرف نصها ونهايتها. وفجأة عرف هاربوتل ذلك الشعور جيدًا، تعرف عليه وبدأ يلاحظ أن الوجه الذي كان يطالعه من أعلى المنصة كان يشبه إلى درجة غير ممكنة، الوجه الذي طالعه في المرآة يوميًّا. كان أضخم نعم، أضخم بكثير وأقوى لكنه كان الوجه ذاته.

حاول هاربوتل القتال من أجل حياته، صرخ في القاضي بعزة نفس أنه لا يصدق حتى في تلك المحكمة أو أوامرها

لأنه لم يسمع بها قبلًا في حياته، ولو كانت بالفعل محكمة رسمية تحت حكم الملك وسلطته، كما هي حال أي محكمة أخرى على وجه الأرض، فلم يكن لأي قاضٍ فيها الحق في مقاضاة قاضٍ آخر أو مساءلته فيما يفعل أو كيف يصدر أحكامه طالما الأوراق الرسمية قد خُتمت وطالما الأحكام قد صدرت.

لكن القاضي نظر في وجهه واتسعت ابتسامته ساخرًا:

- لكن هذه المحكمة، ليست من المحاكم على وجه الأرض ولا تخضع لسلطة الملك. ليس ملككم.

ثم بدأ يضحك، كانت ضحكته كالشيطان، ضحك وتراجع في كرسيه مقهقهًا. وسرعان ما بدأ الجميع في القاعة حوله يضحكون بدورهم. التفت ونظر إليهم، كانت الضحكات تنطلق الواحدة تلو الأخرى من الأفواه لكن الوجوه كانت شاحبة ولم يبدُ على أي منها أنه يضحك، ملامحهم جميعًا كانت ثابتة تمامًا، أعينهم براقة وأنيابهم وأسنانهم براقة، لكنها متجهمة وعابسة، الوجوه التي كانت تنظر إليه لم تكن تضحك فمن أين صدرت تلك الضحكات؟

طرق القاضي بمطرقته من جديد حتى يعم الصمت ثم بدأ بذكر قائمة كاملة من التهم المنسوبة إلى هاربوتل، من أناس ليسوا حتى حاضرين في المحكمة، ذلك الرجل الذي أُعدم لأنه رفض تقديم عربته للقاضي دون إيجار، تلك الطفلة التي دهسها حصان صديق مقرب للقاضي في الريف ثم وارا الجثة وحين حاولا تقديم المال لأهل الطفلة لإنقاذ رأس الرجل، ورفض الأهل، نسب القاضي

تهمة لرب العائلة ألقت به في السجن حتى تعفن ومات، وأصبح أطفاله وزوجته مشردين دون رب عائلة ودون مصدر رزق.

وضع قائمة كاملة من قضايا وذكريات كان القاضي هاربوتل قد تخلص منها على مر الزمن الواحدة تلو الأخرى، لم يعد يتذكر أكثر من نصفها حتى. حتى صاح بالتهمة المنسوبة له، من خادمه نفسه، بتزوير تهمة الكذب له، بإلقائه في السجن وبموت ابنه. صاح هاربوتل فورًا:

- أنا لم أقتل الصبي! أحدهم وضع جسده بعد قتله في بيتي!

- بل أنت قتلت الصبي.

- أنا لم أقتل أحدًا!

- سيد هاربوتل، تخطيك القانون أعطى أهل بيتك بالكامل الحق ليتخطوا القانون.

لم يفهم في البداية ما يعنيه الرجل، لكنه حين واصل كلامه عرف هاربوتل أن الصبي لم يوضع هناك في الأعلى لإخافة القاضي من قِبل بيتر هوجز مثلما كان يتخيل، بل من أحد أفراد بيته نفسهم. أحد الخدم، أحد الزوار، لم يعرف تحديدًا من، لكن من وضعه هناك مثَّل بالجثة كي يخفي فعلته، اغتصاب؟ هل كان ما قاله القاضي ذو الرداء الأحمر اعتداء على طفل ذي سنوات عشر؟ لم يتمكن هاربوتل من التفكير بشكل صحيح الآن، أصبح كل شيء حوله غائمًا والأصوات صارت ذات صدى. كان يتعرض للخيانة تحت سقف بيته، يتعرض للخيانة داخل الجدران

التي يملكها بماله وبعرقه! لكنه استمر في الصياح على كل حال، حتى ولو لم يدرك نصف ما يتفوه به، استمر في الصياح والاعتراض ومحاولة الدفاع عن نفسه حتى بدت قاعة المحكمة وكأنها لعبة إطلاق رصاصات، روليت روسية بين القاضي ذي الرداء الأحمر والقاضي هاربوتل.

"لست مذنبًا!" صرخ بها هاربوتل لكن القاضي لم ينتبه لها، كانت أسنانه تلمع وكأنه يتذوق دماء هاربوتل بالفعل، وكأنه لا يطيق صبرًا ليرى الرجل يتدلى من المشنقة.

ثم جاء دور هيئة التحليف التي أصدرت هسيسًا غريبًا الواحد تلو الآخر، بوجوههم الرمادية وأجسادهم المتحللة، كلهم بلا استثناء نطقوا بالكلمة معًا:

"مذنب!"

أطلق القاضي إثرها حكمه بالإعدام شنقًا على القاضي إيلايجا هاربوتل، بعد مرور 10 أيام بالضبط من تاريخ انعقاد المحكمة، ثم وقبل أن يحصل هاربوتل على فرصة للكلام أمر القاضي السجان باقتياده للخارج.

بين الرجلين سار هاربوتل كالمنوم، محاولًا إدراك ما حدث توًّا لكن دون فائدة، أصبح كل شيء حوله باهتًا، خبت الأصوات وعاد إلى ظلام الممر، لكنه كان ظلامًا مختلفًا في تلك المرة، وكأن النيران تزحف خلف الحجارة الضخمة. بدأت قدماه تتخليان عنه لكنه سار، مدفوعًا بعدم التصديق ومدفوعًا بالرعب، وبقوى الطبيعة التي تحرك جسده دون إرادة منه.

لم يدرك أنه توقف إلا بعد أن توقف بثوانٍ، نظر أمامه

فوجد أن سجانيه أوقفاه مباشرة أمام رجل يحمل مطرقة، حداد بدا رأسه شديد السواد من خلف النار المشتعلة، كان جسده العاري موشومًا بالحروق في مواضع كثيرة لدرجة أن لا لحم سليم بدا من بينها.

- اخلعوا نعله.

صاح بصوت قوي وهو يضرب شيئًا ما بمطرقته، لم يحاول القاضي المقاومة لأنه لم يكن قادرًا على استيعاب ما يحدث من الأساس، لم يشعر سوى باقتراب الجسد الضخم منه، كان بعين واحدة فقط، وكان ينظر إليه في عينيه مباشرة وهو ينحني إلى الأسفل، ممسكًا بالأصفاد الحمراء بيديه العاريتين. شم القاضي رائحة اللحم المحترق، لحم الحداد في البداية، ثم لحمه هو حين أعلن الحداد:

- أحد طرفي الأصفاد سيُغلق هنا، ليربطك بالمكان حتى موعد موتك.

أغلق الأصفاد حول ساقه وهو يصيح:

- والآخر سيلتحم بلحمك.

احترق لحم ساقه فور أن مسته الأصفاد، وبدأ جسده ينتفض بقوة. صرخ القاضي بألم وبقوة هزت كل شيء حوله، صرخ مرعوبًا وملتاعًا ومتألمًا حتى بدأت جدران الممر تهتز، الأرض أسفل منه تهتز، السماء أعلاه تنشق، ثم سقط أرضًا وهو ما زال يصرخ.

الفصل الثامن

لم ينقطع القاضي عن الصراخ حتى حين سقط إلى أرض العربة، واقترب منه رفيقاه مقاطعين ضحكاتهما وحديثهما الماجن ليقتربا منه بدهشة ويساعداه في النهوض.

استمر القاضي في الصراخ الملتاع:

- ساقي، ساقي!

كشف عن ساقه لكن لا أحد رأى شيئًا فيها، لا علامة ولا حرقًا كما كان يردد. كان مستيقظًا تمامًا الآن، حدق بكل شيء حوله وبدأ يرتجف، لم يره رفيقاه في تلك الحال أبدًا وحاول أحدهما السؤال عما ألم به، صرخ فيهما، "كم لبثنا في العربة؟" فأجاباه بأنهم وصلوا إلى بيته توًّا، لم تأخذ الرحلة سوى أقل من نصف الساعة كما هي الحال دائمًا في الرحلات بين بيت القاضي والحانة. لكنه نعتهما بالكاذبين، استمر في الصراخ والصياح وهو يهبط من العربة مستندًا إلى ذراع خادمه، أمر السائق بأن يأخذ الرجلين بعيدًا ودخل منزله متعكزًا. لم يرَ حرقًا بساقه، لكنه رأى الظلام في كل شيء حوله، كان جسده بالكامل يحترق من الداخل. بدأ الخدم يخرجون من الحجرات ليروا ماذا يحدث فدفع عنه خادمه وهو يشير إليهم بعكازه:

- أنتم، أنتم!

نظر الجميع بعضهم إلى بعض واستمر القاضي في الصراخ:

- تأكلون طعامي، تحتسون شرابي، ثم تطعنوني في ظهري.

حاول أحدهم فتح فمه للحديث لكن القاضي صرخ فيه أن يخرس، وقبل أن يستوعب الرجل ما يحدث كان

الرجل العجوز يتحرك متقافزًا، مستندًا إلى عكازه ليلتقط ما استطاعت يده الوصول إليه من التحف على الطاولة جوار الباب، أمسك بشمعدان مذهب ليصيح:

- أهذا ما ترغبون فيه؟ أهذا ما خنتوني لأجله؟ المال اللعين!

ألقى بالشمعدان لينكسر على الأرض، صرخت خادمة أخرى أقرب فأمسك بأحد الأطباق الفضية ليلقي به في وجهها، وهنا التف حوله أقرب الخدم له لتهدئته. لكنه كان يصيح بالسباب، كان يسرد كل سر وكل فعله قذرة ارتكبها كل واحد منهم، هكذا أمام الجميع. لو احترق فسيحترق الجميع معه. لو سقط فلن يسقط وحده، وهذا البيت الذي بناه من الدم سيسقط في بحر من الدم قبل أن يموت صاحبه.

- سيدي، سيدي. إنه النقرس فقط سيدي، أنت تحتاج إلى الطبيب.

حاول أحد الخدم التهدئة من روعه، أمسك بذراعه لكن القاضي دفعه ثم سقط أرضًا بعد أن فقد توازنه. بدأ الخدم ينسحبون من حوله الواحد تلو الآخر إلى البعيد، وظل القاضي على الأرض ممسكًا بساقه، ناظرًا إلى اللحم الذي كان سليمًا، الألم كان رهيبًا لكن اللحم كان سليمًا، والنور كان حوله، ولا قيود أو حروق كانت بجسده، لكنه كان يرتجف ويتعرق بقوة.

- النقرس..

همس لنفسه، النقرس فقط. دون أن يأمر تحرك الخادم

ليستدعي الطبيب فورًا، وأُغلقت الأبواب حول القاضي الذي رفض أن يحمله أحد إلى الأعلى وظل جالسًا على الأرض، ناظرًا إلى ساقه، إلى أصابع يده القرمزية المتعرقة، كان حلمًا، كان كل شيء مجرد حلم.

***

رقد القاضي اليومين التاليين في الفراش يهذي، لم يكن قادرًا على النهوض حتى لتناول الطعام، وتناوب الخدم على تقديم الطعام والشراب له لكنه كان يرفض، أغلب الوقت كان يرفض. لم يسمح لأحد بإطعامه سوى فلورا، لأنه كان واثقًا أنها الوحيدة التي لن تحاول تسميمه، الوحيدة التي ترغب في بقائه حيًّا لإعالتها هي وطفلتها. أما عن بقية الخدم، فلم يكن يثق في أي منهم بعد الآن حتى ولو كان ما مر به مجرد حلم.

جاء الطبيب وذهب عدة مرات، أخبره أن النقرس هو سبب مرضه وقدم له الدواء لكنه قال إن عليه تغيير المكان، فليذهب إلى المنتجع الصحي في باكستون، فمن شأن الطبيعة والرائحة والسماء الصافية هناك أن تحسن صحته. بقاؤه هنا في لندن لم يكن مستحبًا في ذلك الوقت.

لكن القاضي شخر وأعلن أنه يرفض الذهاب، طرد الطبيب من المكان فورًا وأمر خادمه بأن يتأكد من ألا يعود ذلك الرجل إلى هنا. عزل القاضي نفسه في فراشه بالأعلى طوال الوقت، يأكل ويشرب وينام ويفكر. لو كان كل ما رآه مجرد حلم قذر، مجرد ألاعيب النقرس الحقيرة، فلِم شعر بأن كل ما حدث كان حقيقيًّا، تلك

الساعات التي قضاها في المحكمة والعيون التي كانت تراقبه من على الكراسي في القاعة؟ كان كلما حاول طمس تلك الذكريات في عقله شعر بها تعود متسللة تدريجيًّا إلى وعيه.

بعد يوم ثالث عادت إليه القدرة على الحركة، مستندًا إلى العصا وبصحبه خادم نعم، لكنه على الأقل كان قادرًا على مغادرة الفراش. تحرك في أنحاء البيت يراقب كل شيء وينظر إلى كل شخص. لم تعد له الرغبة بالعودة إلى قاعدة المحكمة لذا أرسل ليخبرهم أنه لن يعود لفترة، وأن كل القضايا تحت اسمه عليها الانتقال إلى يد قاضٍ آخر. شعر أنه لو عاد إلى تلك القاعة فسيعود له المرض. فمضى يدور بين جدران البيت على غير هدى، يراقب لندن السوداء في الخارج بعد غروب الشمس من نافذة غرفته، الحياة البائسة التي تدور أسفل السخام والدخان في الشوارع.

بعد مغيب شمس الليلة الرابعة عشر هاربوتل بعد أن دخل مكتبه على الخطاب، كاد يسقط من جديد لكنه تمالك نفسه وأمسك بالورقة بين يديه المحتقنتين، الخطاب من المحكمة العليا، وقاضيها ذي الرداء الأحمر والأموات الأحياء في قاعاتها. كانت الورقة بين يديه دليلًا كافيًا على أن ما حدث كان حقيقيًّا، لكنه لم يكن ليصدق أن ذلك كان حقيقيًّا. وحين وقف في نافذة مكتبه تلك الليلة يراقب الشوارع في الخارج بلا شموع مضاءة خلفه ولا صوت صادر من بيته، فكر في إمكانية أن أحدهم حاول تسميمه، ربما دس أحد الخدم شيئًا ما في شرابه ثم أوحى

له بما أوحى له به. ولهذا وجد هاربوتل نفسه أسير ذلك الحلم. لكنه عاد وتذكر أن عدم ثقته في سكان بيته كانت في الأصل مبنية على ما قيل في المحكمة في تلك الليلة. ليس لديه دليل حتى على أن أهل بيته من الخدم أو الزوار يخونونه بأي طريقه.

ماذا عن الصبي الميت على أرض غرفتك؟ حدثه عقله لكنه طمس تلك الذكرى، لم يكن راغبًا في رؤية المزيد من الموتى لا داخل عقله ولا خارجه. قبض على الورقة بيده حتى تجعدت بالكامل وانطمست ملامحها، كان في حاجة إلى الكلام مع أحد، في إخبار أحدهم بما يدور في عقله وما رآه دون أن يعرض نفسه لتهمة الجنون. فكر في مراسلة طبيب نفسي كان قد خدمه منذ سنوات وكان الرجل مدينًا له بحياته، لكنه عاد وفكر أن عليه حفظ ذلك الدين لمناسبة أخرى، وبالتالي لجأ إلى الخيار الوحيد المتاح أمامه..

فلورا كورويل.

الفصل التاسع

- أنت تعني بعد خمسة أيام، سينفذ الموتى حكمهم عليك بالإعدام؟

قالتها فلورا متسائلة وهي جالسة مع هاربوتل في مكتبه لشرب الشاي في مساء اليوم التالي. كان قد أخبرها بكل شيء رآه وراقب وجهها يتجعد حين وصف بالتفاصيل ما شاهده في ذلك الحلم. لسبب ما ورغم الظروف التي كان يمر بها حاليًّا، ما زال يجد لذة في تعذيبها بتفاصيل لا ترغب في سماعها، لا يرغب أي شخص عاقل في سماعها، لذا استمر في الحكي حتى وصل إلى لحظة إصدار الحكم وحينها أطلقت السؤال الذي أجابه:

- من المفترض، نعم.

لكنها وعلى عكس ما توقع ابتسمت وهي ترتشف الشاي الخاص بها وتعلن:

- لا أظن أن الحلم يحمل معنى سيئًا، أسمعت من قبل عما يقال، بأن من يموت في الحلم يعيش حياة أطول في الواقع؟

لا، لم يكن القاضي قد سمع بتلك المقولة من قبل، لأنه وقبل تلك الأيام لم يكن يصدق في الهراء المسمى بالأحلام والإشارات والمنامات، لم يكن ممن يلجؤون إلى مجالس التاروت أو إلى العرافات الغجريات لمتابعة أفلاكهم وحركة النجوم وما تدل عليه وما عليهم فعله بناء على ما يروه في البلورات. لم يكن يعرف سوى القانون والواقع وما يراه ويشمه ويسمعه. وقبل أن يصرح بهذا أخبرته فلورا بأن الأحلام غالبًا ما تكون معكوسة، أي

إن المرض يعني الصحة في الواقع والموت يعني حياة طويلة وكريمة، الألم يعني قرب الشفاء. في تلك الأحلام التي تبدو كالواقع كان كل شيء معكوسًا لأنها من الشيطان، والشيطان يحاول إخافة البشر للإيمان بأن الرب غير عادل.

تجمد القاضي في مكانه حين قالت "الرب غير عادل" وتذكر من جديد المحكمة ومن بها وما حدث فيها، لم يخبرها بالطبع بالشعور الذي دفنه منذ أن استيقظ من ذلك الحلم، بل من قبل أن يحلم به أصلًا، منذ أن جاءه بيتر هوجز ليخبره بأن محكمة قد انعقدت للحكم عليه. كان يعرف بداخله، بالأسفل في ذلك الجزء الضامر السجين المسمى بالضمير، أن ما رآه لم يكن سوى العدل بعينه.

كان ما نطق به في المحكمة العامة في الصحو أو في المحكمة العليا للموت في المنام أكاذيب في أغلب الوقت، اعتادها وحفظها وقولبها لمنفعته حتى نسي أنها أكاذيب، أقنع عقله أن كل ما هو ليس في صالحه يستحق العقاب، كل من ليس صديقًا هو عدو، وكل من أخطأ عداه هو مجرم يستحق الموت. لكن هل كانت هذه هي الحقيقة فعلًا؟

المسمار الذي إن لم يتم الطرق عليه كفاية، فسينحني وسينهار السقف. المقولة التي آمن بها دومًا، لطالما رأى أنه أعلى منها. كان قاضيًا أعلى موكلًا من الملك نفسه بتطبيق القانون، لذا وبطريقة ما رأى أنه كان فوق ذلك القانون. بعد مغادرة فلورا وبعد أن عاد إلى الأعلى إلى غرفته ليراقب لندن كعادته كل ليلة من خلف نافذته المغلقة، رأى أنه أعلى من تلك الشوارع الملطخة بالبذاءة والسخام،

ومن أولئك المتسولين الذين ينهشون بطون بعضهم بعضًا باحثين عن الطعام. كان عاليًا، في نفس مستوى الدخان الأسود المتصاعد من المداخن أعلى البيوت.

يطفو فوق كل شيء، يراقب كل شيء. من يستحق الحياة سيتركه ويتبدد وسط السحب، ومن لا يستحقها؟ كان يتراكم فوقه، يتراكم حتى يختنق المذنب، حتى تزهق روحه ويتخلص العالم من مجرم آخر.

للمرة الأولى في تلك الليلة نظر إلى الدخان الأسود المتصاعد وأدرك أن فوق ذلك الدخان طبقة أخرى، لم يكن الدخان هو نهاية لندن، بل كانت تعلوه سماء. تلك السماء التي تصعد إليها كل الأرواح التي تزهقها الحياة، أو التي يزهقها الجرم أو القانون أو ملاك الموت على حد سواء. ولتلك السماء عدل آخر وقوانين أخرى. ارتجف القاضي وقد شعر فجأة بالضآلة، بالرعب. هل كان ما رآه حقًّا حلمًا؟ لو كان كذلك فلِم ينظر الآن إلى سماء الليل ويشعر بها ناظرة إليه؟ وكأن في تلك الليلة حين ركضت العربة فوق الطرقات كانت قد انقلبت من السير على أرض لندن إلى السير على صفحة السماء، هناك كانت المنصات منصوبة والقاعات ممتلئة والجميع في انتظار الحكم العادل. هناك عرف القاضي في المحكمة العليا للموت كل أكذوبة تفوه بها هاربوتل. كان عاجزًا هناك وضئيلًا.

نظر إلى يده الفارغة، الخطاب كان حقيقيًّا، وستة أيام هي ما تبقى. الألم كان مستمرًّا وكان بداخله يعلم، أن لحمه لم يوصم بالأصفاد لكن روحه فعلت.

***

سقط القاضي هاربوتل أسير الحمى من جديد ليومين متتاليين، صار صحوه ومنامه تحفهما الهلوسات، وكثيرًا ما كان ينهض في منتصف الليل ليصرخ، مشيرًا إلى أشخاص غير مرئيين في الحجرة، كان يصرخ ويمسك برأسه محاولًا منع دقات مطرقة المحكمة من الطرق داخل جمجمته.

حاول الخدم المساعدة وجلبوا طبيبًا آخر، وذلك الطبيب وصف دواء كان هاربوتل غير قادر على رفضه هذه المرة، لأنه كان أضعف من المقاومة. أخبر الطبيب الخدم والسيد أن صحة هاربوتل في اعتلال متزايد وأن عليه هذه المرة من باب الضرورة لا الرفاهية، مغادرة لندن لبعض الوقت.

- باقي يومان، يومان فقط!

كان يصيح بها هاربوتل ساخرًا حين نصحه الطبيب بالمغادرة، ثم جاءت فلورا وأطعمته، ومن جديد حاولت الحديث معه عن الحلم وعن دلالته المعكوسة. أخبرته أن الحلم قد يكون جيدًا. من يعلم، لِم لا يحدث في ذلك اليوم وعلى عكس ما يتوقع هو شيء رائع من باب التغيير؟ مفاجأة عظيمة تحسن من صحته ومن مزاجه؟ ونظر إليها هاربوتل فترة كبيرة ثم ضحك ساخرًا وهو يصفق بيديه:

- أيتها المرأة الحرباء، أنت على حق! ابن أخي توم، توم الأصفر القذر قد سقط منذ فترة أسير المرض، قد يموت في أي يوم الآن، اليوم أو الغد أو بعد الغد في بيته على أطراف لندن.

تناول هاربوتل طعامه وهو ينظر حول الغرفة ثم قال:

- أتعرفين إن مات ذلك البائس؟ فسأرث حصة هائلة في ماله وأرضه. سيكون هذا رائعًا من باب التغيير.

لم تكن لدى فلورا أي فكرة إن كان هاربوتل يمزح أم يتحدث بجدية وقد عادت له شخصيته السابقة، إلا أنه في اليوم ذاته كان قد أصدر أوامر صارمة لجميع خدم المنزل بالسفر فورًا إلى باكستون، وإعداد بيت قد استأجره هناك بالمراسلة. كان عليهم تجهيزه أفضل تجهيز استعدادًا لحضوره بعد يوم واحد. وبالفعل انطلق الخدم جميعهم إلى البيت الجديد في باكستون دون تأخير.

***

باليوم التاسع طرق خادم الطبيب باب بيت القاضي لكنه وجده مفتوحًا، والقاضي لم يجِب. كان البيت فارغًا من الخدم وخشي الخادم أن يتم اتهامه بشيء ما لأنه كان يعرف طبيعة السيد هاربوتل، لذا عاد إلى العربة وأخبر الطبيب الذي دخل المنزل مسرعًا، متخطيًا درجات السلم اثنتين في كل خطوة واتجه مباشرة إلى غرفة القاضي. كانت الشمس في طريقها للغياب والسماء المخضبة بالحمرة كانت في مواجهة نافذة حجرة الرجل المريض مباشرة، لذا تخضبت الحجرة بالكامل بحمرة الغروب، ولأن القاضي كان جالسًا على مقعده أمام المدفأة المشتعلة، يراقب النار تعلو وتخبو وهو في كامل ثياب القضاء الحمراء الخاصة به، فقد شعر الطبيب أنه دخل للتو حجرة مكسوة بالدم، تحترق.

كان القاضي قد استسلم من جديد لشياطين عقله،

وسقط في مقعده صامتًا ومنتظرًا، يتمتم بكلام لم يفهمه الطبيب. لكنه التقط منه كلمات كالعدل الإلهي، كالألم، وكالنور الذي كما هو في السماء، عليه أن يسطع يومًا ما على الأرض. لم يفهم الطبيب ما تفوه به القاضي بالضبط لكنه كان رجلًا قويًّا ونشطًا، ذا قدر كبير من الطاقة. لذا أخبر القاضي أن تلك الأوهام في عقله ما هي إلا هلوسات، مجرد هلوسات قذرة زرعها المرض في رأسه. وكان عليه فقط مقاومتها حتى ينتقل غدًا إلى باكستون، وهناك سيجد الراحة والعناية والشفاء.

ساعده الطبيب والخادم على نزع الرداء الأحمر والتمدد في الفراش. أحضر الطبيب الدواء وقدمه له وهو يهمس بكلمات التشجيع، لكن هاربوتل بنظرة واحدة إلى الطبيب ولدهشته استطاع قراءة ما كان يدور في عقله. لم يكن الطبيب خائفًا على صحة القاضي حبًّا فيه أو رغبة صادقة منه في أن يتماثل الرجل للشفاء فعلًا. كان راغبًا فقط في أن يظل القاضي حيًّا لأنه لو مات، فسيأتي عشرات غيره ليحلوا محله، محاولين امتلاك السلطة والمنصب ذاته، ولأن الطبيب قد كون علاقة جيدة مع هاربوتل، كان يرى أن قاضيًا فاسدًا تعرفه أفضل من قاضٍ فاسد ستحاول التعرف عليه من جديد.

ضحك هاربوتل بأسى وهو شبه عاجز، لم تكن لديه طاقة حتى يصدر أي حكم على الطبيب أو حتى يجادله، لِم؟ لأنه كان على حق. رقد هاربوتل في الفراش مندهشًا من تلك القدرة الجديدة على رؤية ما يدور في عقل الآخرين، هل

كانت تلك القدرة منحة إلهية تشي باقتراب موعد موته؟ على الأرجح نعم. بضعف أمسك هاربوتل بذراع الطبيب طالبًا منه طلبًا أخيرًا:

- احرق الرداء.

- عفوًا؟

سأل الطبيب بدهشة فقال هاربوتل بنفس الإصرار:

- احرق ردائي الأحمر في المدفأة الآن، سيدي الطبيب.

- لكن سيد هاربوتل...

- افعل ما آمرك به.

حاول الطبيب التربيت على يد الرجل وثنيه عن قراره، متعللًا بأن ذلك الذي يتحدث هو المرض ليس إلا، لكن هاربوتل صاح بكل القوة التي تمكن من استجماعها:

- احرق الرداء اللعين، أريد أن أراه يحترق!

ولم يجد الطبيب بدًّا من أن يأمر خادمه بالتنفيذ، جمع الخادم الرداء الملقى على الأرض في كومة وألقى به في المدفأة التي تتأجج النار فيها، ثم فتح النافذة كي يساعد الهواء البارد الآتي من الخارج على تخفيف حدة الدخان في الحجرة. تناول هاربوتل الدواء حينها، واندس في الفراش أسفل الأغطية بعد أن أمر بأن يظل الخادم بصحبته داخل الحجرة حتى يستسلم إلى النوم، حتى يغيب عن العالم.

وبقي الخادم واحترق الرداء وراقبه هاربوتل حتى بدأت عيناه تنغلقان شيئًا فشيئًا.

الفصل العاشر

مع مغيب شمس اليوم العاشر كان القليل من الخدم قد عادوا إلى البيت لخدمة السيد قبل نقله إلى البيت الجديد، تركوه نائمًا طوال النهار في الأعلى ليرتاح قبل تقديم العشاء، لعل الرجل يتحسن. كانت تلك أوامر فلورا لبقية الخدم الذين أخبرتهم أن الأوامر جاءت مباشرة من سيدها.

لم يكن ما حدث قد حدث حتى المغيب التام للشمس وسقوط الكون في ساعات الشفق الأحمر، في ذلك الوقت كانت الخادمة راغبة في التخلص من عبء الاعتناء بطفلتها، للانتهاء من أشغالها، لذا تركتها تركض كيفما تشاء بالبيت، لترى الأواني الصينية واللوحات والأردية — التي كانت هوايتها المفضلة — بشرط ألا تلمس أي شيء. ولا أي شيء. ومثلت الطفلة للأوامر فانطلقت تراقب الرسوم على الأواني، اللوحات والنقوش في كل جدار وكل لوح خشبي، حتى بدأ البيت كله يصطبغ بالأحمر وصار من الصعب تمييز ألوان الموجودات، أصبحت كل الألوان ما بين القرمزي والأحمر الفاتح. في ذلك الوقت وبينما الخادمة منشغلة عادت طفلتها لتقص عليها ما رأته على اللوحات، وفي النقوش على الأواني الصينية، وعن الشعر المستعار الخاص بالقاضي الذي كان معلقًا على جانب الكرسي في مكتبه. ثم وصفت شيئًا غريبًا جعل الخادمة تنتبه فورًا وتعتدل ناظرة إلى ابنتها.

كانت الطفلة فضولية، لكنها كانت صريحة. لذا أخبرت والدتها أنها بعد أن انتهت من النظر إلى الأواني واللوحات في القاعة، شعرت بالملل، لأن الألوان أصبحت شديدة

التقارب ولأنها لم تعد تميز الألوان على الرسوم الجميلة. لذا تسللت إلى أعلى السلالم، لم تكن تنوي أي شر ولم تكن بالتأكيد تنوي إزعاج القاضي. كانت راغبة في مشاهدة الممر فقط، لأنها لم ترَ مغيب الشمس في الممرات في الدور العلوي من قبل. لذا تسللت وتسللت، وحين رأت الضوء الأحمر آتيًا من أسفل أحد الأبواب المغلقة، وقفت أمام الباب لتنظر إلى الداخل بفضول.

كانت الغرفة مغلقة منذ زمن، لأن القاضي استبدلها بغرفة المكتب في الأسفل. لكنه ترك فيها كرسيه العالي ذا البطانة الجلدية أمام المدفأة المطفأة. كانت النافذة مفتوحة في تلك الغرفة من أجل التهوية، والستائر البيضاء تحركت كالأشباح على حدودها. لم ترَ الطفلة سوى جزء بسيط من النافذة والغرفة الفارغة، لكن على الضوء الأحمر رأت جسدًا جالسًا على الكرسي، معتدلًا، ينظر إلى المدفأة المغلقة.

وصفته بأنه رجل طويل القامة، ذو بذلة سوداء، عينين بنيتين، أنف كبير، شعر متراجع للخلف، وعلامة بنفسجية بشعة على جانب عنقه، لم يكن يتحرك لكنه كان يحدق في شيء ما منتظرًا، ولم يلتفت لينظر إلى الباب ولم يشعر بالطفلة لكنها فرت هاربة قبل أن يتم الإمساك بها، وهبطت السلالم مسرعة لتخبر أمها.

فور أن انتهت الطفلة من الكلام حتى سألت:

- من ذلك الرجل يا ماما؟

وفورًا أدركت أنها رأت شيئًا مريعًا، لأن عيني أمها

اتسعتا وسقط الطبق من يدها ليتهشم على الأرض بصوت جعل الطفلة تقفز للخلف مجفلة. أسرعت الأم نحوها فكادت الصغيرة تهرب لكن فلورا أخبرتها أنها لم ترتكب شيئًا مشينًا، فقط كانت راغبة في رؤية ما رأته ابنتها، لذا حملت شمعة بعد أن جففت يدها وأمسكت بذراع الطفلة لتقتادها إلى تلك الحجرة التي رأت فيها الرجل.

***

معًا صعدت فلورا وابنتها السلالم على ضوء الشمعة الوحيد بعد أن قل الضوء في البيت، ولم يكلف أي من الخدم عناء إضاءة المصابيح لأن السيد لن ينزل على أي حال ولأنهم مغادرون عما قريب. وصلتا معًا إلى الباب المغلق ووقفت فلورا أمامه متقطعة الأنفاس قبل أن تشير إلى ابنتها كي تنظر عبر ثقب الباب من جديد:

- هيا مارجري، انظري من جديد وأخبريني بما ترين.

- لكن ماما، هذا خطأ!

قالتها الطفلة ببراءة فنظرت إليها أمها بغضب، كانت خائفة من النظر بنفسها لذا حثت الطفلة من جديد، أخبرتها أنها تريد التأكد من أن لا أحد تسلل إلى البيت ومن أنهم بأمان. أخبرتها أنها ستضع الشمعة جوار الفتحة كي تتمكن مارجري من رؤية ما بالداخل بوضوح أكبر. ووقفت هناك بلباسها الأحمر الطويل وغطاء الرأس الأحمر ذي الخيوط البيضاء ترتجف خلف ابنتها، منتظرة ما ستقوله الطفلة التي وقفت على أطراف أصابعها لتلقي نظرة في الداخل. لكن الطفلة أعلنت أنها لا ترى أي شيء، لم

يعد للرجل الغريب وجود، أخبرتها أمها أن تنظر من جديد لكن للمرة الثانية قالت الطفلة نفس الكلمات، لا أحد في الداخل.

تنفست فلورا الصعداء وهي تهمس:

- أرأيت؟ كان مجرد وهم يا صغيرتـ ...

لكنها قبل أن تكمل الجملة حتى همست الطفلة وهي تقفز مشيرة إلى نهاية الممر:

- ها هو هناك ماما، ها هو هناك! أخبرتك أنني رأيت رجلًا، فقط غيَّر مكانه.

التفتت فلورا مذعورة، لم ترَ أي شيء في الجهة التي أشارت إليها ابنتها حتى حين رفعت الشمعة إلى الأعلى، كان باب الغرفة مفتوحًا وهناك شمعة صغيرة مضاءة بالداخل بالتأكيد لأن ضوءًا طفيفًا انطلق من هناك، لكنها لم ترَ أحدًا يدخل أو يخرج، كادت تصرخ في ابنتها موبخة، حين رأت الظل يتحرك بالداخل، رأته على ضوء الشمعة وصرخت وهي تتراجع للخلف. عجزت فلورا عن الحركة وأمسكت بثيابها ابنتها مختبئة خلفها، لا لسبب سوى لأن أمها خائفة. لم تكن تدرك لِم رعب أمها ولم تفهم حتى حين جاءت الخادمات متسائلات عن سبب الصراخ. أشارت إليهن السيدة بتفتيش الغرفة وانطلقن لتفتيشها إلا أنهن لم يجدن أحدًا. تمامًا كما توقعت فلورا.

لم تفهم الطفلة سبب الخوف، ولا الخادمات فهمن، وحدها فلورا كانت ترتجف هلعًا لأنها تعرفت على هوية الرجل الذي وصفته ابنتها، دون حتى أن تراه.

***

عادت فلورا إلى الأسفل فورًا، إلى المطبخ خائفة ترتجف بعد أن أمرت ابنتها بالمكوث في غرفتها وبعدم الخروج تحت أي ظرف كان. اعترضت الطفلة لكن أمها للمرة الأولى في حياتها صفعتها وأمرتها بالبقاء هناك. وعادت إلى المطبخ، لم تكن تعرف ما عليها فعله الآن، أو ما رأت، أو حتى إن كان ما رأت حقيقيًّا. فكرت في إيقاظ القاضي وإخباره، لكن ماذا ستستفيد من مثل هذا الفعل؟ لا شيء سوى السخرية ربما. والقاضي لديه ما يكفيه من المشاكل دون أن تضيف هي الأخرى مشكلة إضافية إليه.

لذا بقيت بالمطبخ لِما بدت كساعات تدفن مخاوفها في العمل، حتى تناهى إلى سمعها صوت غريب قادم من الخارج فتوقفت عن الغسيل فورًا وتسمرت بمكانها تنصت السمع. كان الصوت القادم من الخارج صوت خطوات. تحركت مرتعدة عدة خطوات تجاه الباب. أصغت السمع لكنها لم تتعرف على الصوت، الخطوات كانت ثقيلة، شعرت وكأنها ترج السلالم. ولم يكن بالبيت سواها هي والخادمات الأخريات، لا رجل هنا، لذا فتحت الباب ونادت. لكنها لم تتلقَّ إجابة، فتحرت متجهة إلى الخارج، إلى السلالم، حاملة شمعة من جديد لتتغلب على الظلام، لم ترَ أحدًا على السلالم في البداية فبدأت بالصعود حتى بدا لها الجانب الأعلى من السلالم الذي تركوا فيه شمعة مضاءة كي لا يتعثر أحدهم ويسقط ليكسر رأسه.

وهناك رأته، جسدًا ما ضخمًا، ضخمًا كالعمالقة ومنحني

الجذع حتى لا يرتطم رأسه بالسقف، لم ترَ ملامحه فقد كان شديد السواد، وكان يتنفس بعمق وهو يتحرك جارًّا قدميه، في اتجاه الممر. رغمًا عنها صرخت وتراجعت وصرخت من جديد، لكن الشيء الضخم الذي كان يسير بثبات لم يلتفت لها، كان يجر شيئًا ما خلفه، شيئًا بدا لها كحبل طويل، كمشنقة.

انطلقت فلورا صارخة بهستيريا على السلالم إلى حجرات الخدم حيث استيقظت من استيقظت واجتمعت أخريات حولها، حاولت الكلام لكنها تلعثمت وبكت وصرخت وأشارت إلى الخارج. ولم يفهم منها أحد شيئًا سوى أن هناك دخيلًا في المنزل. انطلقت إحدى الخادمات إلى الخارج لتجلب حارسًا من البيت المجاور، أي مساعدة ممكنة، وحاولت الباقيات التهدئة من روع فلورا التي التفتت حولها باحثة عن ابنتها حتى وجدتها مكومة في رعب جوار أحد الجدران، انتزعتها وضمتها إلى صدرها وهي تصرخ بالأخريات:

- علينا الخروج من هنا!

نظرن بعضهن إلى بعض لكنها صاحت من جديد:

- الآن، علينا مغادرة المنزل الآن!

- والقاضي؟

- سنعود مع طلوع النهار، القاضي نائم لكننا لا نستطيع البقاء هنا لحظة واحدة.

كلامها لم يكن منطقيًّا ولم تتحرك ولا واحدة من الخدم حتى صرخت إحداهن مشيرة إلى الباب:

- دخان، البيت يحترق!

التفتت فلورا حين صرخت الأخريات، واندفعن الى الباب، تسمرت في مكانها للحظات وهي ترى الباب يتأرجح مفتوحًا، والممر الذي كان مظلمًا قد صار مضاء بالبرتقالي والأحمر. لم تكن في حاجة إلى عقل نابغة حتى تدرك أن تلك النيران قادمة من المطبخ، المطبخ الذي كانت وحدها تعمل فيه ولم يكن بأي حال من الأحوال ممكنًا أن تندلع به النيران بتلك السرعة!

فلورا التي خرجت من الباب مسرعة تحمل ابنتها، نظرت لترى النيران تزحف من المطبخ إلى قاعة الاستقبال، النسوة صرخن وانطلقن إلى الشارع، باحثات عن النجدة، ووقفت هي أمام الباب تحمل ابنتها الباكية تنقل نظرها من باب المطبخ إلى بوابة البيت ثم إلى السلالم، رفعت عينيها لتنظر إلى الطابق العلوي، السلالم الأخيرة التي تقود إلى الطابق العلوي، ورأته هناك، واقفًا بكامل ثيابه السوداء يراقبها من الأعلى والعلامة البنفسجية البشعة بادية بوضوح على عنقه في ضوء اللهب.

لويس!

لم يكن حيًّا، كانت تعرف أنه لم يكن حيًّا بالضبط كما كانت تعرف أنه عائد للانتقام منها وأن تلك النيران التي تأكل المنزل ستكون هي المتهمة الأولى فيها، حدقت في وجهه الصامت الثابت، ورأت ظلالًا أخرى تتحرك خلفه، سمعت الدقات ترج الأرض أسفل منها، طرقات مطرقة القضاة في قاعة المحكمة. ارتج كل شيء حولها وشعرت

وكأن النيران ذاتها تصرخ، سمعت الهمسات، والصيحات، ثم الصراخ الملتاع الذي ميزته قادمًا من الدور العلوي، التوسلات والصراخ والعويل، وأشياء تتحطم، عظامًا أو أمتعة أو أثاثًا.. لم تكن تعرف، لكنها كانت تعرف من يصرخ. ولم تتحرك ولو خطوة تجاه السلم لمساعدته.

لم تتحرك تجاه الباب الأمامي كذلك، كانت تعرف أفضل من أن تنطلق إلى شارع سيكون كل من فيه مجتمعين أمام الباب الآن. ضمت ابنتها أقرب إلى صدرها وانتزعت نظرها من على جسد زوجها الذي توهج في ضوء النار، وانطلقت إلى السلالم الخلفية، الباب الخلفي للمطبخ، مبتعدة، تاركة كل شيء خلفها إلى الأبد.

الخاتمة

اندفعت عربات الإطفاء والجيران بالشارع إلى البيت المحترق، ألقوا بدلاء الماء وأوصل رجال الإطفاء الخراطيم بالماء لتندفع المياه مغرقة كل شيء في الدور الأول لمنزل القاضي إيلايجا هاربوتل. انفجرت الأواني الصينية وتآكلت اللوحات، التهمت النيران الأوراق في المكتب وتجعدت الزهور المحفورة على الكرسي العالي فتفحم، ثم تساقطت أحشاؤه إلى الأسفل لترقد على الأرض سوداء وسط الماء والرماد.

تمكنوا من السيطرة على الحريق قبل فوات الأوان وقبل أن يصل حتى إلى الدور العلوي، جاء الطبيب فورًا والشرطة وأصدقاء القاضي لكنهم وقفوا في الخارج أمام الباب يراقبون عملية الإطفاء، لم يحاول أحدهم حتى ولوج المنزل أو المغامرة بحياته لإنقاذ القاضي الكهل. نظروا بعضهم إلى بعض منتظرين أن يبادر أحدهم بالتقدم وتقديم المساعدة، لكن الجميع وقف هناك فقط، يراقب وينتظر النتائج.

كان الطبيب هو أول من دخل بصحبة الشرطة بعد أن تم الإطفاء الكامل، وبعد أن أعلن أفراد فرقة الإطفاء أنه من الآمن دخول البيت الآن وأن الحريق لم يمس الدور العلوي لحسن الحظ. شهدت الخادمات اللاتي عدن أنهن جميعًا هربن في الوقت المناسب وأن لا أحد مفقود. لا أحد سوى فلورا وابنتها. المرأة التي أخفاها القاضي طوال تلك المدة داخل البيت والتي بدا اسمها مألوفًا للطبيب ولأفراد الشرطة، لكنهم لم يتمكنوا من ربط الاسم بالمرأة،

ليس بعد، ليس الآن على الأقل.

لم يجدوا أجسادًا متفحمة في الدور السفلي، ولم يجدوا أي دليل لمن أشعل النيران، ووجدوا القاضي، بجسد سليم، دون حرق واحد ودون إصابة. لكنهم وجدوه يتدلى من حبل مشنقة أعلى السلم، يتأرجح يمينًا ويسارًا بعينين مفتوحتين ذعرًا وقد كُسرت رقبته وتدلى لسانه إلى الخارج.

لم يكن هناك أي أثر لعراك أو مقاومة، وجرى بالطبع البحث عن المرأة التي كانت الفرد الوحيد المفقود وبالتالي كانت المتهم الوحيد في حادث الحريق، لكنهم لم يجدوها أبدًا. ولم يتم الربط بين اسمها واسم لويس بانويك. أعلنوا وفاة القاضي، وأعلنوا أنها ليست عملية قتل، بل انتحار.

كيف صعد القاضي إلى تلك القائمة المرتفعة أعلى السلالم وشنق نفسه، هو الذي رقد مريضًا لأيام لا يستطيع حتى الحركة من الفراش بفعل النقرس؟ لا أحد عرف ولا أحد اهتم، لأن الشرطة بعد اكتشاف جسد القاضي وبعد نقله ليتم تجهيزه للدفن، وجدوا جسدًا وحيدًا إضافيًّا في البيت الفارغ، جسدًا قد تم دفنه عمدًا في التراب أسفل البيت، بالقبو.

وذلك الجسد كان لصبي في العاشرة قد وجدوا أباه طافيًا بالنهر قبلها بأسابيع. سواء كان القاضي مريضًا بعقله وانتحر، أو تم إمراضه عن عمد وقُتل، لم تجد لا السلطات ولا المعارف الرغبة داخلهم لفتح تحقيق في شأن موته. ليس بعد ما وجدوه، ليس بعد كل ما حدث.

شُيعت جنازة إيلايجا هاربوتل في اليوم التالي ودُفن مع عبارة واحدة نُقشت على حجر قبره:

"عدالة السماء."

جوزيف شيريدان

قاضي الموتى

الكل كان يعرف، أن هاربوتل هو شيطان الدم في لندن. وللأسف، لم يتمكن أحد من فعل أى شيء حيال ذلك، لم يكن بوسع أي أحد إيقافه.

غلاف : أسامة علام

ISBN 9789776634305

ضائر
t.me/twinkling4

دارك
للنشر والتوزيع